

الدكتور محمد مهدي البصير

مؤلفات البصير

بقلم الدكتور علي جواد الطاهر

* * *

البصير ، محمد مهدي البصير ، علم من اعلام العراق الحديث ، لا يجهله احد في العراق لما له من مكانة في الوطنية والشعر والادب ... والتدريس الجامعي . هو شاعر ثورة العشرين (١٩٢٠) ، وقد اقترن اسمه بها ، اذ كان مؤجج نارها ومذكي حماسة ابنائها ، فاذا انشد قصيدة أو ألقى خطبة كان ثورة في الثورة ، ومن كان كذلك لقي مجدا وتمجيدا ، وعان عنتا وارهاقا .

تلك صفحة من تاريخه واضحة نيرة ، لا مجال الى نكرانها ، ويتعب نفسه من يتجاهلها ، وهي معروفة تمام المعرفة في العراق ، ومعروفة لدى الاوساط العربية التي اشتغلت مخلصة في القضايا الوطنية والقومية .

ولقد نشأنا ونحن نسمع اسم البصير في كل مكان ، وبكل احترام واعجاب .. حتى لتروى عنه قصص يمكن ان تدخل في الاساطير ... لم نشهد الثورة ، ولكننا شهدنا جيلها وسمعنا عنه واصغينا اليه ، ورددنا ما بلغنا عن شاعرها من قصائد واناشيد . وللبصير قبل الثورة تاريخ في الحلة وفي بغداد فيه النكتة اللاذعة والالتفاتة البارعة في حافظته وذاكرته ، وذكائه وجرأته وتصرفه .. وادبه .

ولما انتهت الثورة وقامت أركان حكم جديد .. زاول - فيما زاول - التدريس في جامعة آل البيت ، وألف ونشر ثم ابتعث الى مصر في اوائل تموز سنة ١٩٣٠ ، فاقام قليلا ثم غادرها الى فرنسا فحصل على الدكتوراه في الاداب وعاد في ٩ - ٢ - ١٩٣٨ .

تولى تدريس الادب العربي بدار المعلمين العالية ، فتخرجت على يده أجيال من مدرسي الثانويات ، منهم اللامع في ميادين الادب والشعر والتربية ، ومنهم من واصل الدرس فعاد استاذا في جامعة او موظفا ذا مكان .

انصرف البصير الى الدرس والتدريس ، يعد المحاضرة تلو المحاضرة ، وقد يتحدث خلال ذلك في اذاعة او حفلة او ندوة ، وينشر مقالة او بحثا او خاطرة .. وأساس خلقه في كل ذلك الاخلاص ، وهذا يقتضيه اناة وصبرا ودقة وزهدا بالشهرة الرخيصة ، وترفعا عما يختلق عليه او يصطنع في معاداته تاركا التخرصات الى الحقائق تفضحها وتهلكها وتذروها ، فيتأملها ساخرا ، هازئا .. ضاحكا الى درجات القهقهة .

وقد اجتمع لديه من النتاج الشيء الكثير ، مما وجب اخراجه في الناس كتابا ينتفع به الطالب ويستفيد منه المتتبع ، ويعتمده الاستاذ . ولكن كتب البصير ظلت محدودة الانتشار ، بمعنى انها لم تعرف جيدا خارج دار المعلمين العالية او دائرة المعنيين بالادب من العراقيين ، ولم تصل الى سوريا ولبنان ومصر .. والمغرب على المدى الواسع ، وهذا شأن اكثر الكتب العراقية - ان لم يكن كلها - وقد يكون العراق نفسه مسؤولا عن هذا ، ولكن غير العراق مسؤول ايضا ، لانالمفروض بكليات الاداب واساتذة الادب العربي في الكليات أن يستقصوا وأن يعرفوا ما يجد في محيط عملهم من جيد ما ينتجه زملاؤهم ، زيادة في المعرفة وتجنبا للتكرار ، وكان الذي تهيأ للاساتذة المصريين من فرص الاطلاع على النتاج العراقي ما لم يتهيأ لغيرهم ، فلقد زاروا العراق وأقاموا فيه مدرسين واساتذة ، وزارهم في مصر من طلاب الاساتذة العراقيين من اكمل دراسته في ربوعهم وأعد أطروحته تحت اسمهم ، ومع هذا فقد بقيت الدنيا هي هي ، وكان المفروض بالعلم لم يكن مفروضا .

هذه ظاهرة مؤلمة يجب ان تزول لانها عار في كل دلالة من دلالاتها الكثر .. علما ان كتب البصير ليست عن طالبها بالمنأى الذي يدعيه المتذرعون بالاعذار غير المقبولة . وانها لو كانت اثارا ضئيلة القيمة ، وكانت جمعا كما يحطب الحاطبون او اعادة كما يكرر الملفقون او ادعاء كما يطبل المطبلون .. او ارتجالا واعتباطا كما يفعل الصبية او المتصابون ... لهان الامر ، ولما كان لهذا التعليق مسوغ ، وانما هي كتب رأي ناضج وتأمل طويل وتجربة متصلة لمؤلف لا ينشر ما لم يطمئن الى سلامة عمله ، والى انه سيضيف جديدا ان في الرأي وان في المنهج .

انشهد اننا قوم متفرقون لما ندرك أقطار الوحدة ، ومبتدئون لما نتعلم أسس البحث الجامعي . والامثلة اكثر من ان تحصى .

في ايار ١٩٦٠ عقدت « هيئة الدراسات العربية بالجامعة الاميركية في بيروت » مؤتمرها العاشر بعد ان « عزفت عن المحاضرات الى الدراسات العميقة وقصرت العضوية على أهل الاختصاص فقط » ، ودارت ابحاث المؤتمر « على ما أسهم به المؤلفون العرب في المائة سنة الاخيرة في دراسة الادب العربي » ، ونشرت وقائعه في كتاب عنوانه : « الادب العربي في آثار الدارسين » - بيروت ، دار العلم للملايين سنة ١٩٦٠ . وليس معقولا - فيما هو غير معقول - انيجهل « اهل الاختصاص فقط » مؤلفات الدكتور البصير . ولنر :

كان صدر الاسلام - في المؤتمر - من حصة الدكتور وليد عرفات ، والعصر الاموي من حصة الدكتور جبرائيل جبور ، ومع ان الاثنين مختصان في موضوعهما دون شك ، الا انهما لم يعلما بكتاب للدكتور البصير ، طبع مرتين ، اسمه « عصر القرآن » ، فيه - فيمن يتضمن من الشعراء - حسان بن ثابت وعمر بن ابي ربيعة ، وللدكتور عرفات رسالة عن حسان وللدكتور جبور كتاب عن عمر . وان صعب العلم بـ « عصر القرآن » فلايصعب ان يسمع مختص بأن بابا من هذا الكتاب عنوانه « النثر في عصر القرآن » نشر قبل ان يكون الكتاب فصولا خلال عام ١٩٣٩ - ١٩٤٠ في مجلة عراقية معروفة اسمها « المعلم الجديد » .

وتولى الاستاذ موسى سليمان دراسة المؤلفين في « النثر في العصر العباسي » ولكنه لم يشر الى كتاب للدكتور البصير ، طبع مرتين ، اسمه « في الادب العباسي » .

وكنت اود ان يكون الدكتور احسان عباس ممن يعلم ان للدكتور

البصير كتابا في ((الموشح ..)) او ان يدري ـ في الاقل ـ ان لـه مقالتين عن ((ابن خفاجة)) و ((ابن هاني)) نشرتا عام ١٩٣٩ ـ ببغداد في مجلة ((المعلم الجدد)) .

لقد ذكر مؤلفو المؤتمر العاشر الغث والسمين ، وثبتوا أقدام ما هب ودب فكيف كان ما كان ! واشهد ان الدكتور عمر فروخ الذي تولى كتابة ((الشعر العباسي من المتنبي حتى سقوط بغداد)) لم ينس ((في الادب العباسي)) ـ فكيف كان ذلك له ولم يكن لغيره ؟!

اما الدكتور شكري فيصل الذي تولى البحث في ((الادب العربي من سقوط بغداد حتى اوائل النهضة الحديثة)) فانـه تخلص عـن المسؤولية بان جعل كلامه عاما جدا ولم يقيد نفسه فيما اشترطتـه ((هيئة الدراسات)) مـن بيان ما أسهم به المؤلفون العرب)) .

وفي الجمهورية العربية المتحدة استاذ معروف كثير الكتب غزير التاليف متصل النشر هو الدكتور شوقي ضيف .. دعته دار الهلال ليقف على الطبعة الثانية من كتاب جرجي زيدان ((تاريخ آداب اللغـة العربية)) فيحفظ له عنصر الجدة والديمومة بالتعليق والتذييل . وقد بذل الدكتور شوقي ضيف جهدا ملحوظا في الحواشي وبيان المصـادر والمراجع الجديدة التي ورد فيها كلام على ((الاديب)) الذي تحدث عنه زيدان ، او جاء فيها حديث عن البحث الذي طرقه زيدان ، ودل على علمه بما صدر في الجمهورية العربية المتحدة من جديد وعلى غيرتـه على اثبات هذا الذي صدر ـ مهما كانت قيمته احيانا .

واذ أشهد أن له الحق ـ كل الحق ـ في اثبات ذلك ، أشهد ان ما اثبت لا يغني عن ذكر البصير ، وان كثيرا منه لا يقف واياه علـى قدم المساواة ـكنت اتمنى على الدكتور شوقي ضيف ان لا يفوته ذلك لاني احسب ان صلته بطلاب البصير ادت الى سماعه به . كان ذلك في عام ١٩٥٧ .

ثم ان الدكتور شوقي ضيف اعتزم ان يكتب ((تاريخ الادب العربي)) ـ وربما كان من موحيات ذلك عمله في كتاب زيدان ـ جد وجمع وكنا ننتظر ان يكون هنا مجاله أوسع مما كان في غيره ، وان يكون للبصير مكان بين هؤلاء الذين ذكرهم او أشار اليهم . صـدر الجـزء الاول ((العصر الجاهلي)) سنة ١٩٦٠ ، ثم الثاني ((العصر الاسلامي)) سنة ١٩٦٣ ، ثم الثالث ((العصر العباسي الاول)) ١٩٦٧ ، فاذا الموقف لم يتغير ، وبقي علينا واجب انتظار الجزء الرابع والاجزاء التالية راجين الا تخلو من اشارة الى البصير في نثر العصور وشعرها .

وواضح اني لست في موقف العتاب على الماضي ، فلكل باحـث ظروفه ، ولكني أود ان نتعاون في سبيل تحقيق ما هو اكمل واتـم ، وليست المسالة مسالة البصير قدر ما هي مسالة الحقيقـة ، والا فالرجل في غنى عن كل ما ادعو اليه ، ولم يمر بخاطره منه شيء ولم يجر له فيه حديث . واني لولا ثقتي بقيمة بحثه وخطورة رأيه لمـا دعوت الى ما دعوت ، ولم تات هذه الثقة عبثا ، فلقد نضجتها الايام وشدت من اواصرها التجارب ، منذ سماعي به ومنذ بدء دراستي عليه عام ١٩٤٢ وعلى غيره في العراق وخارجه .

كنا مرة في احدى حلقات الدرس على المسيو بلاشير ، فما كاد يطمئن بالاستاذ الصعب جدا المجلس حتى انبسطت اساريره وافتـرت شفتاه كمن قام بخاطره شيء عزيز او اراد ان يتحف تلاميذه ـ مـن شتى الاقطار العربية ـ بنتائج كشف خطير ، ثم تكلم ، فكان اطـراء على احدث ما وصل اليه من المؤلفات العراقية ، وخص ((في الادب العباسي)) من مؤلفات البصير بالقسط الاوفر من الثناء .

وكان بين الحضور باحث سوري ((صالح الاشتر)) يحضر الدكتوراه عن ((البحتري)) وقد سار شوطا محمودا في عمله ، استعار كتـاب البصير وقرأ الفصل المعقود على البحتري فازداد اعجابا . وكان مـن كلامه انه رأى البصير سبق الى اراء قيمة وانه حل مشكلات كانـت تشغله ، وان انتباهه للنص كان نادرا وان تصحيحه بذوقه للنص المطبوع يؤيده ما وقف عليه من مخطوطات ديوان الشاعر .

ان الدكتور البصير كتب هادئا مطمئنا لطلابه ولمن يسعـى الـى العلم ، وكأني به كان ـ اذيكتب ـ مطمئناكذلك الى ان كتبه ستكتشف وان اراءه ستذيع ، وقد يكون من اوائل من ينتفع بها من اطلع عليها، فعمل ـ لسبب ولاخر ـ على الغض من شانها ، انه كثيرا ما يقابـل العقوق بالسماحة ، وقد يضحك في سره ضحكته الساخرة المعهودة .

ولنذكر ان الطلبة هم الطلبة وفيهم غير قليل من كان يبرم بكتب البصير او يستثقلها ، ومنهم من يبالغ في ذلك لامر قد يكون صادق النية فيه ولامور قد يكون مأتاها العجز او دواع خارجة عن طبيعـة العمل ، وقد يكون مردها الى الطريقة التي يتبعها الاستاذ او الدرجة التي يعطيها . ذلك ايام الطلب ، حتى اذا تخرجوا واصبحوا مدرسين في الثانويات او دور المعلمين وارادوا ان يتحفوا طلبتهم بما ليس في الكتب المقررة او رغبوا في ان يظهروا بمظهر من يعرف اكثر مما يطلب اليه او انهم كلفوا درسا لا كتاب مقررا له .. عادوا يسألون عن كتب البصير ، وكثيرا ما يزدادون اعجابا ان كانوا معجبين ، وان يغيروا من موقفهم ان كانوا غير معجبين .

وقل مثل ذلك عن طلبته الذين يصبحون اساتذة للادب فـي الجامعات . انهم لا يستغنون عن كتب البصير ، وفيهم من يفخر امام تلاميذه بأنه كان تلميذا للمؤلف ويزداد فخرا اذا لحظ اهتمام الطلبة الجدد بالبحث الذي قرءوه في كتاب للبصير . وقد يجره حديث ـ لدى مناسبة من المناسبات ـ الى بيان في جملة آرائه وخلاصة لصفات منهجـه .

يؤمن الدكتور البصير بضرورة الكتابة في امر من امور تاريـخ الادب العربي ، فيعد العدة ويدعو سكرتيره الى القراءة فيجمع فـي ذهنه الاشباه والنظائر ، ويناقش ويتامل ويقلب ما يسمع على وجوهه متانيا متريثا ، وهو في تامله الطويل يسبر غور ما بين يديـه مـن روايات ، فاذا بدا له في رواية سخف تركها ، واذا أحس بكـذب فضحه ، واذا شام تناقضا دل عليه حتى ليبدو في مناقشته اخبـار الماضيين منطقيا جدا . انه يشك في القدامى وفيما رووا ، وهـو على حق في ذلك ، فلقد ثبت الاختلاق في غير قليل مما وصل الينا ، وثبت غير قليل من الغفلة في تناول معاصرينا لتلك الروايات وفـي النظر الى ناقليها ، ولكنه لا يشك للشك ، ولم يتخذ هذا المذهـب تكلفا او تقليدا او قصدا الى الهدم ، لانه يريد ان يبني ، وان فـي هذه المادة الخام ما يصلح للبناء ، ولكن فيها ما لا يصلح ، واذا فليكن هو وعماله وساكنو البناء في حذر وعلى بينة .

اذا اطمان الى صحة شكه نقله الى قارئه مؤيـدا بخلاصـة برهاناته ، وما كان ليترك امرا مما ينفي ـ او يثبت ـ دوندليل ودون مثال . الشك عنده طريق الى البناء ، ومن هنا ، فانه حـين قـرر ((الانتحال)) في الشعر الجاهلي صحح عيون اخباره وغرر قصائده . ولعله امعن في الشك اكثر من سواه ، فلم يقف من العصر الجاهلي وحده هذا الموقف ، وانما مضى يشك فيما يقرأ من اخبار العصـور التالية له من اسلامي واموي وعباسي ، وقد اداه الشك الى نتائـج باهـرة .

وكما يطيل الوقوف لدى الاخبار يطيله لـدى نصوص الشعر والنثر ، فيطلب ان يقرأ له الديوان والاشعار الواردة في المصادر ، وتقرأ له الخطب والرسائل والمقامات .. ويسمع ويستعيد ويناقش فينتبه الى اختلاق هنا والى قلق هناك والى خطا في هذا البيـت وسخف في هذه السطور فيعمل على التصحيح مستعينا بالمقابلـة والرجوع الى امات المعاجيم حينا ، ومعتمدا حسا خاصا احيانا عملت الايام في ارهافه واسهم كثرة المحفوظ على صقله ناهيـك عن ذوق سليم يجعله يطرب الى النص الجميل ويدفعه الى ان ينقل الطرب الى الاخرين . حتى اذا استقامت شؤون النص واتسقت مجاريه درسـه

في الغرض الذي هدف اليه مقتطفا منه النسب المعقولة ان لم يكن من ذلك مفر ، محيلا اليه في مصادره ان لم يكن أهلا للاستشهاد ، معقبا على ذلك ببيان في اللغة والاسلوب . وكثيرا ما ياخذ من هذه النصوص مادة يعتمدها في درس حياة الشاعر او أدلة يقدمها مصدرا لحضارة العصر .

اذا استقامت مادة البحث واتضح ما ياخذ منه وما يدع ، واتصلت الاجزاء واكتملت العناصر وتعين النهج الذي سيسير به فيه وقال في نفسه كل ما سيقول بانت جدوى الكتابة وآن اوانها فاستدعى سكرتيره وأملى عليه في تؤدة وتحسس دون ان يفقد شيئا من تماسكه او ان يضحى بأمر من حذره ، يملي ويستعيد .. متجنبا اللغو والاطالة مترفعا عن التكرار والاعادة وازنا كلامه وزنا ، ناقدا رأيه نقدا ، لا يهمه ان يحذف الصفحات ان اقتنع بقلة جدواها ، وان يطوى الفصول ان أحس بضآلة قيمتها ، المهم لديه : الاصالة مع الايجاز ، ومن هنا ياتي البحث الذي يمكن ان يملأ كتابا كاملا ، مكثفا في حدود العشرين من الصفحات - انه يحترم نفسه ويحترم قارئه . وهو يكتب في الوقت الذي يراه مناسبا ما يراه مناسبا ، ولا يهمه ما يمضي في ذلك من وقت . انه لا يتعجل امرا ، ولا يعمل للتحرير في صحيفة عابرة او من اجل خدمة جهة معينة، او ليرضي عامة متملقا رغبتهم او خاصة خاطبا ودهم .

واذا انتهى الاملاءلا ينتهي التفكير بالبحث وبما ضم من اخبار وافكار وشواهد فلا بد من عودة الى ذلك . ثم ان امامه طريقا طويلا قبل ان يخرج البحث في الناس كتابا او في كتاب . هذا الطريق هو قاعة الدرس . لان البصير سيملى بحثه على طلابه وسيستمع اليهم يجيبونه عن اسئلة يوجهها اليهم من مضمونه ، ثم يمضي هؤلاء الطلبة ، ويتبعهم طلبة جدد ، يتبعهم اخرون حتى تمر ما يقرب من عشرة اعوام.

أكثر عناية البصير تنصب على دراسة الاعلام وأعلام الاعلام في الشعر والنثر الفني ، وخطته السائدة انه يقسم البحث الى قسمين : حياته ، شعره . وقد يلحق بقسم الحياة ما يراه مناسبا من اخلاق الشاعر او مذهبه ، اما في الشعر فيدرس الاغراض ثم اللغة والاسلوب. ولا يخلو بحث له من خاتمة ذكية موجزة تلخص اخطر آرائه فيه او تعلق على قول مهم في الحكم عليه .

وأبرز ما يتضح منهجه في كتابيه : « عصر القرآن » و « في الادب العباسي » وله غير هذين الكتابين آثار اخرى لا يقل بعضها عنهما شأنا في بابه ، وان اختلف نوعا او غاية .

وفيما ياتي ثبت بالمطبوع من مؤلفات البصير :

١ - تاريخ القضيةالعراقية . جزءان ، ظهر في سنتي ١٩٢٣ ، ١٩٢٤ - بغداد .

٢ - الشذرات . بغداد ، ١٣٤٠ (١٩٢٢) .

٣ - المختصر . بغداد ، ١٣٤٠ (١٩٢٢) .

٤ - النفثات . بغداد ، ١٩٢٤ .

٥ - دولة الدخلاء . بغداد ١٩٢٥ .

٦ - شعر كورني الغنائي (بالفرنسية) مونبليه ١٩٣٧ .

٧ - بعث الشعر الجاهلي . بغداد ، مطبعة التفيض ١٩٣٩ .

٨ - نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر . بغداد ، مطبعة المعارف ١٩٤٦ .

٩ - عصر القرآن . بغداد . ط ١ ، ١٩٤٧ ، ط ٢ ، ١٩٥٥ (مطبعة العاني) - يطلب من كلية التربية .

١٠ - الموشح في الاندلس وفي المشرق ، بغداد ، مطبعة المعارف ١٩٤٨ - ١٣٦٧ - يطلب من كلية التربية .

١١ - في الادب العباسي ، بغداد ، ط١، ١٩٤٩ مطبعة النجاح ، ط ٢ ، ١٩٥٥ ، مطبعة السعدي - يطلب من كلية التربية .

١٢ - خطرات . بغداد ، مطبعة المعارف ١٩٥٢ - يطلب من المكتبة الاهلية .

١٣ - البركان (ديوان شعر سياسي) ، بغداد ، مطبعة المعارف ١٩٥٩ (نشر ملحقا مستقلا للمجلد الثاني والعشرين من مجلة المعلم الجديد التي تصدرها وزارة التربية ببغداد) .

١٤ - سوانح ، الجزء الاول . بغداد ، مطبعة المعارف ١٩٦٧ - يطلب من المكتبة الاهلية .

اما مؤلفاته المخطوطة فأهمها :

١ - زبد الامواج ، ديوان شعر يحتوي على أغلب انواع الشعر المعروفة (يبدو ان المؤلف اراد مرة ان يغير اسمه الى همسات ، ولكنه عدل الى التسمية الاولى) .

٢ - سوانح ، الجزء الثاني . ٣ - خطرات ، الجزء الثاني .

ولا بد ان يكون الدكتور البصير قد عزم على ان ينقل الى العربية الجياد من روائع القصائد الفرنسية والخيار من مهماتها . وقد ترجم فعلا للامرتين ونشر ما ترجم في مجلة المعلم الجديد ، وأعلن على صفحات هذه المجلة نفسها تصميمه على ترجمة « أميل » ونشر شيئا ثم اعتذر . ثم شرع في ترجمة « جريمة سلفستر بونار » ونشر منها شيئا في مجلة « الخمائل » الا ان المجلة توقفت سريعا فتوقف . وكان القارىء يود لو ان الدكتور البصير استمر في مشروعه . فمن أجدر منه بترجمة « السيد » و « سنا » و « بوليكت » من خوالد كورني مثلا .

وتقسم مؤلفات البصير زمنا الى قسمين : ما قبل الدراسة في فرنسا ، وما بعدها . وأهم مؤلفات المرحلة الاولى « تاريخ القضية العراقية » فهو مصدر اولي في موضوع ثورة العراق ١٩٢٠ ، لا يستغني عنه في بابه باحث ، ولا يمكن ان تكتمل دراسة عن تلك الثورة دون الرجوع اليه ، لان المؤلف - كما رأينا - احد رجال الثورة ، وقد عاناها في خيرها وشرها ، وذاق حلوها ومرها - فما اشد الحاجة الى اعادة طبعه .

اما الكتب الاخرى من هذه المرحلة فهي - لدى الحقيقة - كراريس تكون « الشذرات » منها الديوان الاول للشاعر - وهو « يضم مقطعات شعرية يتراوح عدد كل منها بين السبعة ابيات والبيت الواحد » . ويحتوي « المختصر » على مجموعة من الشعر والحكم ، وتشتمل « النفثات » على مجموعة من المقالات والكلمات القصيرة ، وتتالف « دولة الدخلاء » من مسرحية قصيرة . وليس لهذه الكراريس الاربع قيمة اكثر من قيمتها التاريخية في سلسلة مؤلفات صاحبها ، والا ، فهو نفسه لا يعدها شيئا جديرا بالبقاء ، ولذلك لا تراه يذكرها بخير او شر ، ولا يشير اليها اذ يثبت قائمة آثاره .

نظم البصير في المرحلة الاولى غير قليل من الشعر استجابة للثورة وما تقتضي من مقدمات ومستنهضات ، وما يتبعها من امل والم ، وكان يلقي اكثر ذلك في المحافل الشعبية فيؤجج به الحماسة ويثير الاريحية ويدفع الناس الى الثار للعزة والكرامة والحق ، والى الدفاع عن الوطن وحرب الاجنبي ، ثم ينشر منه ما ينشر في الجرائد . ثم جمعه الشاعر في ديوان سماه «البركان» . وبقي البركان مخطوطا ثم طبع وصدر في تموز عام ١٩٥٩ حاويا من الشعر السياسي اجدر مايراه صاحبه بالبقاء ، وعلى احسن وجه يريده له . موزعا على ستة اقسام هي : ١ - الحرب العامة الاولى ٢ - من عقد الهدنة الى اعلان الثورة العراقية ٣ - حمم البركان (ايام الثورة سنة ١٩٢٠) ٤ - بعد العاصفة ٥ - في اعماق السجون ٦ - بين السجن والمنفى . وجاء في مقدمته :

« أطلقت على هذا الديوان اسم « البركان » لانه يمثل جهادي المتواضع في سبيل العرب عامة والعراقيين خاصة ويرمز الى نشاطي الحزبي المحدود الذي كنت امارسه سرا وعلانية مدة تقرب من (١٥) عاما ... ختمت في صيف سنة ١٩٣٠ بانصرافي نهائيا عن السياسة والاحزاب وسفري الى مصر فاوربا طلبا للعلم .

وقد رتبته أي الديوان ترتيبا زمنيا الى حد ما فضممت قصائد كل دور من الادوار التي تحدثت عنها ومقطوعاته الى بعضها ... وعلى هذا ، يمكن اعتباره نوعا من المذكرات نظرا لاحتوائه على خواطر متسلسلة تتعلق بحوادث متعاقبة بعضها سياسي وبعضها حربي وبعضها أدبي أيضا . واعترف أن بعض قصائد هذا الديوان ومقطوعاته نظم على عجل ولا سيما ايام الثورة يوم كان لزاما علي ان انشد مساء كل خميس .. قصيدة سياسية جديدة .. »

كان للقصائد التي يلقيها البصير دوي عظيم وأثر كبير في الجماهير وهم يكبرونها ويهتزون لها ، ويطلبونها ويستزيدون منها لانها كانت تعبيرا عن امانيهم واعرابا عن آلامهم ، وكانوا يرون فيها مظهرا من مظاهر القوة والعزة ، فهي – لهذا – لا تنفصل عن تاريخ العراق ، بل انها صفحات نيرات منه .

واشهر قصائد الديوان وأسيرها وأبقاها على الالسن وفي كتب المختارات ، الكافية التي أنشدها الشاعر « في حفلة وطنية كبرى أقيمت في جامع الحيدرخانة ببغداد قبيل اعلان الثورة ... في ٣٠ حزيران ١٩٢٠ » :

ان ضاق يا وطني علي فضاكا ... فلتتسع بي للامام خطاكا
أجرى ثراك دمي فان أنا خنته ... فلينبذني ان ثويت ثراكا
بك همت بل بالموت دونك في الوغى ... روحي فداك متى أكون فداكا

ماذا علي وما خسرت مكانة ... اني أموت لكي أصون حماكا
قد كان حجرك ما حييت يضمني ... فاذا قتلت فقد سكنت حشاكا

والديوان كله في حوادث البلاد واحداثها وهو دليل ناصع على وطنية صاحبه وصدق عاطفته وعلى حسن رأيه وحرصه على تثقيف الناس بما هم فيه ومقبلون عليه ، وعلى فضح الدسائس وكشف الخائنين . وفي الديوان شعر قد يبدو لاول وهلة شخصيا ، ولكنك اذا نظرت فيه جيدا ، علمت انه اذ يدخل في غرض الفخر فبمقدار ما لهذا الفخر من صلة بالوطنية ، وبمقدار ما وراء هذا الفخر من عوامل استدعته واستثارت صاحبه . ومن جيد شعر البركان بعامة وهذا الباب بخاصة قصيدة « مع البدر » :

أنا الرجل الرامي الى كل غاية ... يواثبني خصمي لها وأواثبه

تقول رجال انما هو شاعر ... فماذا الذي توحي اليه رغائبه
ولا وأبي لا يحفظ الشعب مجده ... وشاعره جهلا يضاع وكاتبه
وما أنا من يزجي القريض بضاعة ... فتلزمه مدح الكريم مواهبه
بلى كم نطقت الشعر فصلا أقوله ... فيكبره من حنكته تجاربه
واطلعت في آفق النهى منه حكمة ... فلم يتقدم صادق الفجر كاذبه
وعندي أياد للزمان شكرتها ... وان عركت بالغمز عودى نوائبه
فابلغ ما يروى الرواة لشاعر ... من الشعر ما أملت عليه مصائبه
لي الله كم قارعت دهري فانثنى ... وأنيابه مفلولة ومخالبه
كأني في احداثه طود لجة ... تبدد شمل الموج منه مناكبه

ان البركان يجب ان يكون معلوما لدى من يؤرخ للادب العربي الحديث – والعراقي منه بخاصة – وان يكون معروفا اكثر لدى من يؤرخ للاتجاه السياسي والوطني منه .

وللاستاذ انيس المقدسي كتاب قيم عن « الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث » ، ولكنه كان يأخذ أحيانا عن مراجع ثانوية فيقع في شيء من الخطأ وسوء التوزيع ، فمع ان البصير شاعر الثورة العراقية دون منازع ، فانه يصفه بشاعر الحلة ، ومع ان له ديوانا كاملا فيها فان نصيبه من الشواهد لا يزيد في كتابه عن نصيب خيري الهنداوي ولا يتعدى عددا محدودا من الكافية منقولا عن كتاب « الادب العصري في العراق .. » لروفائيل بطي . ويمكن ان يعذر الاستاذ المقدسي لدى اعداد البحث وطبعه ، اما الان ، ومنذ عام ١٩٥٩ فالمناسب ان يعود الى البركان ، ولئن فاته ذلك في طبعة عام ١٩٦٠ فنرجو ألا يفوته في الطبعة القابلة .

وبقدر ما كان الشعر يهيىء للبصير من مجد واكرام كان يسبب له من الاذى والمطاردة . ولكن ذلك لم يكن ليثنيه ، ففي أعماق السجون كان ينشد :

قالوا سجنت لرأي كنت تعلنه ... فاكتم وحسبك ما لاقيت من غصص
فقلت هيهات سجني لا يغيرني ... ان الهزار ليشدو وهو في القفص

وكانت النتيجة انه مكث في السجن نحوا من خمسة أشهر ، وانه عندما خرج منه عاود نشاطه السياسي فنفي في ٢٦ أغسطس ١٩٢٢ الى جزيرة هنجام . ثم أعيد .. وأسند اليه تدريس الادب في جامعة آل البيت ولكنه لم يترك العمل السياسي .

وفي صيف ١٩٣٠ تغير مجرى حياته تغيرا كبيرا اذ قرر اعتزال السياسة والانصراف الى الدرس . والفرق شاسع بين الحياتين واذا كان هو قد اختار هذا التحول ، وعرف أسبابه واستوعب ابعاده فانه ليصعب ان ينسى الناس البصير الثائر ، ويصعب ان يقنعوا منه بدراسة الادب او تدريسه والتأليف فيه . انه بقي نظيفا دون شك ، مخلصا لوطنه دون ريب ولكن المسالة تبقى في ان تجعل الناس يرون في هذا الذي يؤلفه لهم القيمة الحقيقية التي هي له في بابه . اما هو فقد قرر وسار في طريقه .

نزل مصر قليلا ثم غادرها الى فرنسا ، وأقام في مونبليه يدرس في كلية الاداب من جامعتها ويعد رسالة الدكتوراه في « شعر كورني الغنائي » . وكورني من أفذاذ الادب الفرنسي ومن قمم الشعر المسرحي في القرن السابع عشر (وكل قرن) . ولهذا لم يكن البحث في « غنائيته » ميسورا او مما يتبادر الى الذهن . وهو اذ يدرس يتزود من روائع الادب الفرنسي وآراء نقاده ، وكان بين هذه الاراء ما يقوي رأيا أدبيا كان قد بدأ تكوينه لنفسه ، مثل نظرته الى « وحدة القافية في الشعر العربي ووجوب « اعلان حرب عوان عليها » . وقرن القول بالعمل اذ نظم قصيدة ، جاء فيها :

ظل على (الليس) ضاف ... وروضة وكتاب
وذو دلال مصاف ... حديثه مستطاب

لقد أخذت نصيبي ... من الحياة فحسبي
ملكت قلب حبيبي ... كما تملك قلبي

لا تذكرن زمانا ... قاسيت أقسى خطوبه
فقد تولى مهانا ... مسامحا في ذنوبه

لا تحسبن لماض ... ولا لآت حسابا
بحاضري أنا راض ... فلننتهبه انتهابا

والابيات تصف ساعة جميلة قضاها على ضفاف نهر « الليس » قرب مونبليه في السنة الاولى لزواجه (١٩٣٤) ، ولا يمكن ان تفهم الا في ظرفها هذا ، ولا يصح ان تفسر غايتها الا بدواعيها هذه . قالها .. وعاد الى درسه وبحثه يواصل الجمع والمقابلة والاستنتاج .. والكتابة حتى انتهى منه وطبعه في كتاب عام ١٩٣٧ . وقد يتمنى القارىء العربي ان يرى هذا الكتاب مترجما الى العربية .

وعاد الى العراق وتولى تدريس الادب العربي بدار المعلمين العالية ونشر عدة كتب في أكثر من نوع أدبي يمكن ان نقسمها بين البحث والانشاء ، ويمكن ان ترى فيها القصيدة او الخاطرة او المقالة ... او الدراسة .

ومن أبرز شعره قصيدة نظمها في ٢٨ – ٨ – ١٩٤٣ بعنوان « أيها الدينار » :

أيها الدينار يا قبلة آمال الانام

هب لهم ما يتمنون شرابا وطعام

لا يغرنك قيل القوم انا مسلمون
فهم غير هواهم أبدا لا يعبدون
ولشيء غير تحقيق الغنى لا يعملون
عبدوا المال تعالى الله عما يشركون
أيها الدينار يا قبلة آمال الانام
هب لهم ما يتمنون شرابا وطعام

أنت قطب الحرب ان شبت لظى الحرب ضرام
وعماد السلم ان عاد الى الارض السلام
انت يا دينار حاخام وقس وامام
فاقض ما شئت لك الحكم وفيك الاختصام
أيها الدينار يا قبلة آمال الانام
هب لهم ما يتمنون شرابا وطعام

ان يراءوا كان من اجلك ذياك الرياء
أو يخونوا كان من أجلك غدر الاصفياء
أنت للقادة ظرف وجمال وذكاء
ولشيخ القوم علم ووقار ودهاء
أيها الدينار يا قبلة آمال الانام
هب لهم ما يتمنون شرابا وطعام

وكان من عادته ان يقرأ على تلامذته ـ لدى المناسبات وفي أوقات الاستراحة ـ مما يحفظ او ينظم ، وقد استأثرت « ايها الدينار » باهتمامهم وكان وهو يقرأها ينفعل ويهتز كثيرا دليلا على عمق الفكرة من نفسه وبرهانا على قساوة التجربة التي دفعته الى النظم ـ ولم يخفف تكرار القراءة من حدتها وجدتها .

اما الخاطرات فكان له منها ما كون كتاب « خطرات » . وقد قال في مقدمة هذا الكتاب : « هذه آراء وملاحظات خطرت لي في احوال ومناسبات مختلفة ، فاشتققت اسمها من مسماها . وقد سجلت رأيي المتواضع في الحياة والناس والسياسة والاجتماع والادب والفن وما الى ذلك ....

ولكن أسبق أن نشرت هذه الكلمات كلها او اكثرها ؟ نعم : لقد نشر بعضها في مجلة « دار السلام » وجريدة « الاستقلال » البغداديتين المحتجبتين ثم جمع ونشر في رسالتي « المختصر » و « النفثات » اللتين ظهرتا قبل سبعة وعشرين عاما ونشر جانب يسير منها سنة ١٩٤٤ في جريدة « الساعة » ... ولكن معظمها ينشر للمرة الاولى في هذا الكتاب » ـ ٧ ـ ٤ ـ ١٩٥٢ .

والكتاب مقسم الى ثلاثة ابواب : السياسيات ، والاجتماعيات ، والادبيات . يحتل الباب الاول منها حوالي ٥٠ صفحة تدل على اهتمام الرجل بالسياسة ومتابعته لاحداثها الخارجية والداخلية ، وان هذه الاحداث تترك اثرا مهما في نفسه وتبعثه على التفكير المتصل ثم لا يلبث ان يلخص مجموع المفعول في رأي له طابع العموم . ومن الامثلة عليه :

١٠ ـ اذا لم نورث ابناءنا النجاح في قضيتنا فلنعلمهم الجهاد دونها في الاقل .

٦٤ ـ منشأ كثير من أغلاطنا السياسية عجلتنا في تحقيق منافعنا الخاصة .

٧٠ ـ لا تستهن بارادة شعب تسوسه وان كان ضعيفا + فان ساعة ليست في حسبانك قد تمكنه من املاء ارادته عليك .

٩٣ ـ كانت خصوماتنا اقوى اسباب هزيمتنا في حرب فلسطين ، ولكن يظهر اننا لم نتعظ بما حدث . فهل نحن بحاجة الى هزيمة اخرى منكرة لنتدبر ونتعظ .

١٧٢ ـ من استطاع الا يأكل خبزه على مائدة الحكومة فليفعل لان خبز هذه المائدة مملوء بالحصى .

٢٠٤ ـ رأيت ألمانيا سيدة العالم مرتين ، ورأيتها تحت اقدام الغالبين مرتين ايضا ما زالت ثانيتهماقائمة ،آفاعجب بعد هذا الحادثمن حوادث الزمن .

ويؤلف باب الاجتماعيات اكثر منصف الكتاب (ص ٥٧ ـ ١٦٧) فيه حكم ونصائح وعظات وتجارب في موضوعات الحياة العامة ويمكن ان تدخل جملة خطراته في « الاخلاقيات » ، من موضوع القوة والتسامح والمرأة والحب والسعادة والمال والنقد والصداقة والشهرة والدين والوظائف والتعليم والكلام والصمت .. الخ. ومن الامثلة عليه :

١٢١ ـ حذار ان تقول لزوجتك لا ، اذا كنت تقدر على ان تقول نعم ، ولكن اذا اضطررت الى ان تقول : لا . فتمسك بها قدر المستطاع.

١٥١ ـ لا تطمع بصداقة اديب لم تثن على أدبه ولا بمودة امرأة لم تسمعها ما تصبو اليه من اطراء جزيل .

٢٠٣ ـ اذا ظنك الناس سعيدا بغير حق فلذ بالصمت لان الكلام في هذا قد يضر ولا ينفع .

٣١٣ ـ من التقبيل ما ليس سوى تلمس لمكان العض .

٥٨٠ ـ استشاط بعض رفاقي غيظا ذات يوم لان رجلا وصفوه بسوء الاخلاق تطاول علي ، ولا أدري لماذا يريد هؤلاء الرفاق الا يتطاول علي رجل من أهل الصلاح والفضل .

لا بد ان تكون جملة خطرات الاجتماعيات تلخيصا لتجربة خاصة اثرت في نفس المؤلف ، فرصها في كلمات معدودات يخفف بها وطء الحادث ويحفظ ثمرته للاخرين .

اما باب الادبيات فهو أقل الابواب (١٧١ ـ ١٨٤) ويمكن ان يرد ذلك الى أن المؤلف قد أذاع أكثر أفكاره الادبية في كتبه لدى المناسبة التي يقتضيها البحث ، وهو هنا لا يحفظ الا ما لم يكن له مناسبة او ما جد له خارج ظروف البحث نفسه . ومن الامثلة عليه :

١٦ ـ اذا كان ادبنا قد نهض في هذا العصر نهضة لا نظير لها في تاريخه فذلك لان فريقا من ادبائنا وقفوا على طائفة من اداب الغربيةوقوفا لا بأس به . على أننا ما زلنا في مفتتح الطرق .

٢٦ ـ أحب صنوف الادب الى الناس ما عالج شؤونهم وتحدث عن آمالهم وآلامهم كائنة قيمته الفنية ما كانت .

٤٣ ـ الفن للفن اولا وللحياة ثانيا .

٤٥ ـ ليس بفنان حقا من يتعهد فنه قبل ذيوع شهرته حتى اذا ذاعت هذه استعاض بها عن الاتقان ..

٤٦ ـ من مضحكاتنا اننا نطلب الى الاديب ان يموت في سبيلنا جوعا مع اننا نحتفظ بحظنا من الحياة كامل غير منقوص .

ويختم الكتاب بملحق من صفحتين للسياسة والاجتماع . من خطراته :

« كانت تجربتي للناس علة سوء ظني بهم ، فمن كان في شك من اصابتها فليجربهم . على ان اطمئناني لهذه التجربة لم يمنعني ولن يمنعني ان ادعو الى التسامح ».

وليلاحظ ان هذا التسامح ليس في الدكتور البصير دعوة فقط وانما هو خلق واقع .

ان الخطرات ذات صلة مباشرة بصاحبها وهي وقائع يومية يحيلها التركيب حكما وامثالا عامة ، وهي اذ تبدو في جملتها بناءة داعية الى الخير فانها يمكن ان تشف أحيانا عن تشاؤم صاحبها ، ولكنه التشاؤم الذي لا ينبذ الحياة ولا يحتم اطلاق سوء الظن .

والخطرات عزيزة جدا على صاحبها وهو يحفظها نصا ـ شأنه في كثير من الامور ـ ويستشهد بها لدى المناسبات المناظرة كما تستشهد بأي مثل سائر . وقد يقرر الدكتور البصير اعتزال اعمال كثيرة ، الا

ان شيئا واحدا ـ لا ولن يستطيع اعتزاله ، هو عمل الخطرات ، ولا أدل على ذلك من اعلانه عن جزء ثان لا بد ان يكون تكون لديه بعد عام ١٩٥٢ لانه لم يشر اليه لدى صدور كتابه ولانه اصدر هـذا الكتاب مستقلا تمام الاستقلال ليس فيه ما يدل على الاستمرار غير روحه ودلالة اهتمام صاحبه بهذا الفن .

اما المقالات فقد اجتمع للدكتور البصير منها عدد كبير ، وهو يحرص على الاحتفاظ بها وجمعها واختيار ما يراه الاجدر بالنشر واعداده للطبع في الوقت المناسب ، ولقد مضى على هذا الاعداد عدة سنوات ولكنه لم يبدأ المشروع الا في ٢٨ ـ ١ ـ ١٩٦٧ فأصدر الجزء الاول منه في ١٠ ـ ٦ ـ ٦٧ باسم « سوانح » مقدما لها بأسطر محدودة جاء فيها « ... هذه مجموعة خطب ومقالات ومحاضرات اخترتها مما تحدثت به الى الناس في شؤون مختلفة وظروف مختلفة وبطرق مختلفة ايضا .. وليس هذا كل ما تحدثت به الى الناس في الدين والسياسة والاجتماع والادب ولا جله . ولكنه جزء غير يسير مما تحدثت به الى الناس بين سنتي ٣٠ و ١٩٦٢ ... واني استلهمت اسم المجموعة التي تحتوي عليها من طريقة ورودها على ذهني . الا وهو (سـوانـح) » .

ولم يختر المؤلف العنوان الا بعد تأمل وادامة فكر ـ شأنه في كثير من أعماله ـ ، ولا بد من أنه اختاره بين عدة موضوعات « سنحت » . وهو اعرف بمولد « كلماته » وبالطابع المميز لها ، الا ان الذي يحسن ان نعرفه انها ليست « سوانح » بالمعنى الحرفي للتعريف القاموسي : « سنح لي رأي وشعر يسنح : عرض لي اوتيسر» لانها لم تأت ـ في جملتها ـ عفوا ، ولم تلق ارتجالا ، لان من اسس خلق صاحبها التأني وطول البحث ، وانه لا يقول الاشياء على عواهنها كما يحلو للاشياء نفسها ان تأتي وان تطلق ، انه اذ اراد ان يكتب فلا بد من التثبت والمراجعة ، ومن هذا المكتوب ما يمكن ان يدخل في عداد الدراسة .

واذا فالسوانح اكثر من سوانح ، ولكنها اسم جميل له دلالته ، وهو اطرف دون شك من « مقالات » وما اليها ، وقد يدل على سنوح فكرة الكتابة في موضوع اكثر مما يدل على مادة الموضوع نفسه . وهاك نماذج من عنواناتها : الاستقلال او الموت . الوطنية في روايات كورني .. البعثات العلمية . ماذا ندرس في معاهد الغرب ، شعراء الخاصة في مصاف العامة .. ابن خفاجة الاندلسي ... القومية بين الغرور والعزة . عبد المحسن الكاظمي ... ما ضيعه التاريخ وحفظه الادب .. فرنسا في عهدين .. صوت محمد .. على قبر ابي العلاء ، في مهرجان ابي العلاء الالفي ... مأساة سوريا ولبنان .. مع توفيق الحكيم . صنيعة اللغة العربية .

صدر الجزء الاول وفيه اشارة الى الثاني ، وقد يكون ثالث ، ولعل المؤلف اذ جعل عام ١٩٦٢ حدا ختاميا للسوانح يشير الى العام الذي انتهى به عمله الرسمي في جامعة بغداد ، ولكن هذا الحد لا يمكن ان يكون طبيعيا في أديب امتزج الادب في حياته على شتى اطوارها ، وانه مهما يميل الى العزلة فان « السوانح » لا تتركه ، ولا ادل على ذلك من « السانحة » التي القاها عام ١٩٦٧ في الاحتفال الذي أقامته الرابطة الادبية بالنجف في ذكرى السيد محمد سعيد الحبوبي .

* * *

وجهد الدكتور البصير في تاريخ الادب العربي جدير بكل اعجاب واحترام لما له في دراسته من منهج ورأي . وحسبك انه من الجد طويل الصبر كثير التأمل لا يهادن في الحقيقة ولا يسخر من القارىء . لازم هذا الادب مبكرا جدا وزاوله مبكرا جدا ثم تهيأ له من الدراسة في فرنسا ما زاده علما وفكرا وتجارب ، ثم تهيأ له في التدريس ما زاده للمادة وفحصا لوجوه الرأي ، فكانت ثمرة كل اولئك كتب قيمة تتناول عدة عصور ، او المهم من هذه العصور والعلم من اعلامها . وهذي هي :

١ ـ بعث الشعر الجاهلي : وهو في الاصل ، سلسلة محاضرات ألقيت في « دار الاذاعة اللاسلكية » ما بين ٢ ـ ٨ ـ ١٩٣٨ و ٢٦ ـ ١ ـ ٣٩ . ولا يعني هذا انها دون مستوى المحاضرات الجامعية لانها منها واليها . وكان اهم ما يحرص عليه الدكتور البصير فيها العناية الخاصة بالمعلقات السبع تحليلا ودراسة وبيانا للمزايا ، ولهـذا فان صلب محاضراته عن امرىء القيس وزهير وعنترة : « قفا نبك » ، و « أمن أم اوفى » و « هل غادر الشعراء من متردم » ، اما محاضرته التي بعنوان « معلقتان » فمدارها معلقتا عمرو بن كلثوم والحارث بن حلـزة .

وهو لدى كل محاضرة ، يرى لزاما ان يثبت حقيقة وجود اصحابها او يشير ـ في الاقل ـ الى هذه الحقيقة ثم يثبت نسبة المعلقات وصحتها ويفند مزاعم الدكتور طه حسين والمستشرقين ، الذين يرون انها منتحلة وان شعراءها وهميون ، وهو اذ يقف هذا الموقف لا ينفي وقوع الاختلاق والاكاذيب وانما يقول : « ان هذا الافتعال يدعونا الى الاناة والتثبت فيما ننقض ونبرم من قضايا التاريخ ، لا الى الجمود المطلق ولا الى الانكار بحق وبغير الحق ـ ص ١٨ » ، حتى اذا كانت محاضرته : « أطروحتان » علمنا تاريخ هذه الافكار لديه وتاريخ هذا الاهتمام : « عندما اصدر الدكتور طه حسين كتابه « الشعر الجاهلي » قرأته .. فلاحظت ان الفكرة التي كتب من اجلها وهي « انكار الشعر الجاهلي والاعتقاد ان الادب العربي الحقيقي يبتدىء بالقرآن » غير صحيحة وان الصواب هو الاعتراف بكثير من الشعر الجاهلي ولا سيما المعلقات ـ او المطولات السبع ـ ولذلك عقدت النية على وضع كتاب لتأييد هذا الرأي ، وقد انجزت وضع الكتاب في سنة ١٩٢٩ ودرسته في جامعة آل البيت ، فلما أتيح لي السفر الى اوروبا وطدت العزم على .. نقل الكتاب الى الفرنسية وتقديمه بشكل اطروحة في السوربون .. ولكن المسألة تطورت .. حتى وصلت الى المستشرقين فقضي على المشروع قضاء مبرما ... فهم يرفضون الشعر الجاهلي كله رفضا باتا .. ومن ثمة صممت على وضع اطروحة في الادب الفرنسي » .

أجمل الدكتور البصير في هذه المحاضرة ادلته على اثبات الشعر الجاهلي ولا سيما المعلقات السبع ، ومن أخطر هذه الادلة قوله : « ان اكبر سلاح يستعمله منكرو الشعر الجاهلي للطعن في المعلقات : هو القول بأن حماد الراوية المعروف بـ « الكذاب » اول من جمعها ودونها في سفر . ولست اريد ان اناقش في فساد ذمة حماد ، ولكني اقول : انه اعجز بكثير من ان يقول المطولات السبع او واحدة منها او جزءا تاما من اجزاء احداهن . ان حماد يستطيع ان يقول البيت أو الابيات القليلة من الشعر المبتذل وان يدسها في شعر احد الجاهليين ليدل بذلك على انه أغزر علما واصدق رواية من غيره من الرواة ، ولكنه لا يستطيع ان يقول قصيدة واحدة ذات شخصية ادبية وقيمة فنية » ثم أيد الدكتور البصير قوله بالبرهان المقنع .

ولقد ذهب بذلك ـ شأنه في كل ما ينقض او يبرم ـ الى صميم المشكلة مترفعا عن الدخول في المهاترات والمغالطات ، متجنبا ان يضيع جهدا في امور جانبية ثانوية او ان يخرج بالموضوع عن حدوده كما رأينا الحال في الكثير مما كتب في الرد على الدكتور طه حسين . أما الذين كتبوا هادئين ـ او على شيء من الهدوء ـ فقد ظلوا بعيدين عن ان يدركوا ما ادركه البصير .

وخصص المحاضرة السادسة والسابعة لـ « قيمة الشعر الجاهلي : الادبية والاجتماعية والفنية » وختم السلسلة بـ « الشعر الفني كما أتصوره » .

« بعث الشعر الجاهلي » كتاب قيم . لا شك في ذلك . ولكننا اذ نرجو اعادة طبعه نأمل اعادة النظر في بنائه ، كأن يخرج عن الطابع الذي اقتضته الاذاعة ، وان تلقى معلقتا لبيد وطرفة ما لقيت

المعلقات الاخرى من عناية وان يضاف الى ذلك فصول اخرى نعلم ان منها ما هو جاهز معد كالنابغة والاعشى وان منها ما هو ناضج عتيد مثل طرفة ومدرسة اوس . اما فصل « الشعر الفني كما اتصوره » فقد يكون مناسبا ان ينقل الى « سوانح » .

٢ – عصر القرآن : ويراد به « الفترة التي تبدأ بقيام الدعوة الاسلامية وتنتهي بزوال دولة بني امية في الشام » وقد اطلق المؤلف هذا الاسم « لغلبة روح القرآن ولغته على خطب خطبائها ورسائل كتابها ، ولاثره البين في السنة شعرائها : فقد رقق من لغتهم ولطف من اساليبهم ووسع دائرة مداركهم ومعارفهم ... »

وللبصير في ادب هذا العصر آراء أصيلة أقامها على طول تأمل المادة والاخلاص في البحث ، وأثاره اليها ما تحقق له من عبث بهذا التراث قديما وحديثا . فهو يقرر ان النثر الفني يبتدىء بالقرآن ويرفض خلو القرآن من النثر خلوه من الشعر . ويقرر « ان شهرة عبد الحميد الكاتب لم تقم على اساس صحيح .. وان الكتابة لم تبدأ به ، وان زعامة الانشاء في عصر القرآن ان كانت لاحد فانما هي لعلي بن ابي طالب ثم لعمر بن الخطاب من بعده » – ولا يلقي البصير القول على عواهنه ، ولا يسوقه دون برهان .

وينتقل الى الشعر والشعراء فيكون من آرائه في الحطيئة انه « شاعر المخضرمين على الاطلاق . وان اخلاقه لا تؤثر كثيرا ولا قليلا في مكانه من الشعر ، لان الشعر شيء والاخلاق شيء آخر .. » ، وفي الخنساء « ان ما يصح من شعرها .. يهمنا .. من حيث هو شعر امراة » ، وفي حسان « لسنا نقول انه غير مجيد ، ولكننا نقول انه يجيد في القليل ويسف في الكثير ، وقد يسف مع الاقلال »

و « عبث الرواة باخبار عبيد الله بن قيس الرقيات عبثا شديدا ، وعبثوا بشعره عبثا شديدا كذلك » . واذا درسنا هاشميات الكميت « راينا انها لسوء الحظ غير جيدة على الاكثر » . و « ان ابن ابي ربيعة صاحب دعابة لا صاحب دعارة ورجل قول لا رجل عمل : غزله اصيل وحوادثه فكهة طريفة » ، وجميل بثينة « في طليعة الشعراء الغزلين الذين جبلوا على الطهر وطبعوا على الصدق وعشقوا الجمال للجمال وكابدوا آلام الحب للحب وعالجوا قرض الشعر للشعر » . وكثيّر « دون استاذه جميل سمو عاطفة ورقة شعور وصدق احساس ، ولكنه قد يفوقه رصانة اسلوب وصفاء ديباجة » .

وفصل الدكتور البصير الكلام على « المثلث الاموي » وعمل لهم خاتمة مطولة جاء فيهاانه : « يخيل الي ان الفصل بين جريروالفرزدق والاخطل يقوم على امرين اثنين لا ثالث لهما ، احدهما عدد ابواب القريض التي برز فيها كل واحد من هؤلاء الشعراء ، وثانيهما ما ترك من غرر الشعر ونفائسه في هذا الباب . وعلى هذا يكون جرير اكبر الثلاثة واعلاهم كعبا في صناعة القريض لانه يبذ صاحبيه في خمسة من ابوابه هي : المديح والغزل والهجاء والعتاب والرثاء .. ويليه الفرزدق في المنزلة لانه يبذ صاحبيه في بابين فقط من ابواب القريض هما الفخر والوصف .. والاخطل ثالث الثلاثة ، لانه لا يتقدم صاحبيه الا في وصف الخمر .. »

وفي كتاب « عصر القرآن مادة ممحصة ونصوص مختارة زيادة على ما يزخر به من الرأي المخلص ، وهوواحد كتابين يتضح فيهما منهج الدكتور البصير في البحث على اجلى ما يمكن ، اما الكتاب الثاني فهو :

٣ – في الادب العباسي : وهو في قسمين : الاول للكتاب والثاني للشعراء . نرى في القسم الاول ان ابن المقفع « يمتاز .. بالغموض والتكرار بلا مسوغ واستعمال الالفاظ في غير ما وضعت له وعجمة كثير من هذه الالفاظ والتعابير » ، وان الجاحظ « اول من صنع المقامة في الادب العربي » ، وان « مقامات الهمذاني » ... جناية لا تغتفر على الادب العربي ذلك انه خلق فيها ادب الشحاذة خلقا » ، اما الحريري ف « ليس من شك في ان نجمه قد أفل الان » .

ونرى في القسم الثاني ان ما يقال عن تجديد بشار القريض العربي « حديث خرافة » ، وان ابا نواس « لم يكن مجددا في يوم من الايام لاي نوع من انواع القريض » ، وانه « لا تزال بين دفتي ديوان ابي تمام ولا سيما في بابي الرثاء والوصف غرر ونفائس اشك جدا في انها تموت فيىوم من الايام » ، وللبحتري « صفات اصيلة » و « ان مدائحه الكثيرة تحمل في ثناياها وصفا فائقا جدا لالوان مختلفة من الحضارة العباسية وتصويرا بالغا منتهى الاجادة لكثير من الوقائع السياسية والحربية المهمة » . وابن الرومي « من فحول شعراء اللغة العربية وما أظن انه من الصواب في شيء ان تفضله عليهم قاطبة كما يرى فريق من النقاد » .

« يختفي – ابو تمام تحت شعاع عبقرية ابي الطيب كما يختفي القمر تحت شعاع الشمس » . وابو فراس « شاعر يؤيد اقواله باعماله ... يفضل الشعراء الفرسان بدقة تفكيره ولطاقة تعبيرهوتطرقه الى كثير من الاغراض التي لم تخطر لهم على بال » . والشريف الرضي « في طليعة شعراء اللغة العربيةكافة صدق عاطفة ورقة شعور وخصب خيال وفصاحة لغة وصفاء اسلوب ، وانه فارس حلبتي الرثاء والفخر .. وامام الغزل العذري العفيف في كل زمان ومكان » .

« وقد لا نخطىء اذا لاحظنا ان مهيار لا يقل كثيرا عن استاذه (الشريف الرضى) اجادة للرثاء ومهارة فيه ، اما في الوصف فقد تكون كفة مهيار هي الراجحة » .

هذه امثلة من احكام الدكتور البصير على اعلام الادب العباسي رائده فيها – اولا وآخرا – الاخلاص للرأي ، واني اذ أكرر هذا اضع القارىء ازاء حقيقة مهمة يجب الا ينساها لدى اعجابه او تعجبه ، علما ان هذه الاراء لا تبدو على خير ما فيها واجل ما فيها ما لم تقرأ متكاملة في كتبه نفسها متصلة غير مقتطعة – كما تقتضي طبيعة الاشياء .

٤ – الموشح في الاندلس وفي المشرق : فرغ المؤلف منه في اوائل سنة ١٩٤١ ولم يتهيأ له طبعه الا بعد حوالي سبع سنوات + وهو يتألف من دراسة ومختارات . ومن أغراض المؤلف لدى كتابته : « نشر الدعوة للموشح والعمل على ترقيته واصلاحه رغبة في ان يحل محل القصيدة القائمة على اساس القافية الموحدة .. » ولهذا ولاجل ربط الكتاب برابط سائد انطلق في تعريف الموشح من قول ابن سناء الملك : « كلام منظوم على وزن مخصوص » فقال انه « ضرب من الكلام المنظوم تتعدد أوزانه وتتنوع قوافيه تبعا لرغبة قائله وقدرته على التصرف في أفانين الكلام » .

عرض لما « احرزه الموشح – الاندلسي – من النجاح في عالم الموسيقى والغناء » وقال : « يخيل الي ان نجاحه في هذا الباب لم يكن مضمونا على الدوام .. » ويبدو هذا الراي غريبا في فن لا يضبطه الا الغناء والموسيقى ، ولكن هذه الغرابة تخف اذا عرفنا قصد المؤلف وسمعناه يقول : « اننا ندرس الموشح على انه ضرب من الشعر له قيمة غنائية ، لا على انه مجموعة اغان شعبية نظمت في عصر من العصور وفي مصر من الامصار .. لاننا لا نشتغل هنا بدراسة الاداب العامية » .

وقد يستطيع قارىء ان يدرس الموشح الاندلسي لدى غير البصير وفي كتب صدرت بعد دراسته الا ان البصير يظل الاول – والمهم ابدا – في الفصول الاخرى من الكتاب ، وفي الجمع بين الاندلس والمشرق، اذ وقف عند ابن سناء الملك والعزازي وصفي الدين الحلي . اما الفصل الذي عقده على نهضة الموشح في العراق في اثناء القرن الثالث عشر للهجرة فليس مما يتهيأ سهلا لغيره . وقد وقف عند ثلاثة من كبار وشاحيه أكبرهم السيد محمد سعيد الحبوبي . ولم تذهب به الفته هذا العصر مذاهب المبالغة ، وانما وقف في حدود بعثه وانصافه

في مرحلته التاريخية ، ولذا فانه حين جاء العصر الحديث قال :
« ... كانت الموشحات في القرن الماضي جزءا من شعر المناسبات تنظم لتنشد في حفلة قران او ختان او موسم فرح آخر من هذا القبيل ... اما موشحات هذا العصر فانها الهام العواطف ووحي العقول والاحاسيس والمشاعر .. وكانت موشحات القرن الماضي شخصية محضة .. اما موشحات هذا العصر فانها تعنى بالشؤون الوطنية سياسية كانت ام اجتماعية بل انها تعنى بالشؤون الانسانية .. وكانت أوزان الموشح وقوافيه في القرن المنصرم محدودة مقيدة .. اما اوزان الموشح وقوافيه في هذا العصر فانها حرة طليقة .. »

ولا تعجب اذ تراه يقف في هذه الدراسة عند : الياس فرحات وجبران وميخائيل نعيمة وعلي محمود طه وايليا ابو ماضي ، فقد قالوا شعرا جميلا يدخل في الموشح ، وكل ما في الامر اننا اعتدنا ان ندرس الموشح منفصلا مستقلا مختصا بالاندلس فقط ، وفي انماط معدودة . اما البصير فقد خرج به عن الدائرة الضيقة التي وضعناه داخلها ـ ولم يكن متعسفا .

بقي ان الدكتور البصير كان يريد الى أن يحل الموشح محل القصيدة القائمة على أساس القافية الموحدة وعد الدعوة الى ذلك ثورة وانتظر لها ان تتحقق . ولعل الذي دعاه الى ذلك ـ غير ايمانه بالفكرة ـ ما قرأ لكبار معاصريه من شعراء العربية . وكان المنتظر ان تنجح الدعوة او ان يستمر الشعراء في النظم على الموشح ولكن يبدو ان « شعور » الجيل التالي بضرورة الخروج على القافية الموحدة او على ما سماه « الشعر العمودي » جره ـ لاسباب مختلفة ـ الى ما سماه «الشعر الحر » او ما الى ذلك من اسماء ، ولعله كان يقصد الى حرية واسعة جدا .

٥ ـ نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر : رأى العراق في القرن التاسع عشر نهضة أدبية نادرة جديرة بالدراسة . ولقد زخر هذا القرن بالشعراء . وبين هؤلاء الشعراء من كان على حظ من الاصالة والاهمية . وقد بقي هذا العصر مجهولا لدى اخواننا في الاقطار العربية ومجهولا حتى لدى العراقيين من ابناء القرن العشرين ، وظل الامر كذلك لانه لم يكن من السهل النهوض بالعبء ولم يكن ميسورا التعريف به ودرسه والكشف عن محاسنه .. و « الدعاية » له ايضا . كأنه ينتظر رجلاله مؤهلات خاصة في الفة العصر السابق والاعجاب بشعرائه وحفظ آثارهم ثم الفة للعصر الحديث والعلم بمناهجه ـ وقد تهيأ له ذلك وأكثر منه في الدكتور محمد مهدي البصير . ولا شك في ان البصير قد اقتنع بجلال الواجب اذ جعل الحديث عن أدب القرن التاسع عشر جزءا من رسالته في الحياة .

انه يعرف عن العصر وأعلامه الكثير والكثير جدا ويحفظ لشعرائه ما لا يحفظه غيره . ومع هذا فلا بد من البدء المنهجي : جمع المصادر والدواوين وجمع الاخبار من مظانها في الكتب ولدى الاشخاص ثم دراسة المتكون من كل ذلك ومخضه واذاعة « الزبدة » منه في الناس عن طريق « الاذاعة اللاسلكية » ـ وكانت الحلقة الاولى منه في ٧ ـ ١٢ ـ ١٩٤٤ . وجمعت الاحاديث في كتاب طبع ـ بعد زيادة في الامثلة والشواهد .

في هذا الكتاب : تمهيد في نشأة النهضة . محمد سعيد الحبوبي . السيد حيدر الحلي . صالح التميمي . عبد الباقي افندي العمري . عبد الغفار الاخرس . حمادي نوح . ابراهيم الطباطبائي . جعفر الحلي . محسن الخضري . عباس النجفي . ابو الثناء الآلوسي . آل قزوين . جعفر الشرقي . محمد حسن كبة . الكوازان . القيّم والعطار . الطريحي وأطيمش والسيد مهدي السيد داود . صالح القزويني وابنه راضي . عبد المطلب . ابو المحاسن .

وقال المؤلف في ختام الخاتمة المكرسة لبيان قيمة هذا الادب :
« وتسألونني عن مركز العراق الادبي في القرن التاسع عشر بالنسبة الى سائر الاقطار العربية ، فاقول لكم انه يبذها جميعا سوى مصر التي انجبت محمود سامي البارودي ، وان كانت مصر قد انجبت البارودي وحده بينما انجبت العراق ثلاثة من أمثاله . وشيء آخر لا بد من ان اقوله لكم ، وهو ان القرن التاسع عشر في العراق نتيجة رائعة للقرون المتوسطة في هذه البلاد ومقدمة أكثر روعة للقرن العشرين ، فليس من شك في أنه لو لم ينبغ عندنا التميمي والحبوبي وحيدر لما نبغ عندنا الزهاوي والرصافي والكاظمي » .

اذا قابلنا « نهضة العراق الادبية .. » بالكتب الاخرى وجدنا ان المؤلف فيه يختلف شيئا عما ألفناه ، والاسباب تنطوي في طبيعة الموضوع نفسه فهو يدرس للمرة الاولى ، وانه جزء من حياة الدارس ثم انه مظلوم يحس المخلص له بضرورة الدفاع عنه و « الدعاية » له وان لا بد من ان تصل حماسته الى السامعين والقارئين ـ هذا الى انه لم يكن كتابا مدرسيا .

لقد نجح الدكتور البصير في تحقيق هدفه ، فلقد أثار الآخرين الى الاهتمام والى الكتابة والنشر والتحقيق وتاليف الكتب واعداد « الرسائل » الجامعية .

ولقد مضى على نشر « نهضة العراق الادبية ... » اكثر من عشرين سنة . ويأمل الدارسون ان يروه في طبعة جديدة ، ومنهم من يرجو أن يرى في هذه الطبعة التعديل الذي يقتضيه الزمن ، والتبويب الذي يبتعد عن متطلبات الاذاعة ، وقد يتمنى تخفيف اللهجة «الحماسية» التي استدعى قسطا منها « الدعاية » لحق مضاع ـ اما جملة الكتاب فتبقى هي هي .

لقد سد « نهضة العراق الادبية » ثغرة ما كانت لتسد لو لم يتحمل المسؤولية فيها الدكتور البصير . ولئن كان كتابه الاول في بابه ، لن تفقده الايام قيمته .

* * *

نظرة اخرى الى مؤلفات الدكتور البصير تدل على انه كتب في أكثر عصور الادب العربي ، وفي اهم موضوعاته وعن اخطر اعلامه ، وانه سار سير المؤرخ الناقد المتاني المتامل تحدوه في كل ذلك نية مخلصة وغيرة كريمة . فنفع اجيالا ، وستنتفع به اجيال واجيال .

واذ عتبنا على اخواننا في الاقطار العربية أنهم لم يدلوا على علم بها وانهم لم يشيروا اليها ، فان علينا ان نضيق مجال العذر بتوسيع دائرة النشر والتوزيع ، راجين أن تشفع اعادة الطبع « بتعديلات » طفيفة مما يراه صاحبها أهلا للقبول وقمينا بالزيادة . ولا نشك في ان لدى الدكتور البصير ما يزيده لانه يعلم عن كل موضوع يكتبه اضعاف المادة التي يقدمها ، ولان همه ـ لدى التاليف ـ ان يقدم اللباب مصحوبا برأي مقرونا بدليل مؤيدا بمثل ، وليس من وكده ان يقدم « موسوعة » عن العصور . كأن القاعدة لديه : ما كل ما يعلم يكتب . والقاعدة صحيحة وفيها احترام كبير للقارىء ، وانما نخشى المبالغة فيها .

اذا حضرت درس الدكتور البصير او مجلسه سمعت اشياء كثيرة لم تقرأها له في كتبه ، وربما افتقدت بعضها في حينه ، وتمنيت لو ان فرصة اخرى تسمح بالحاق المناسب منها في اماكنها من المؤلفات المنشورة

واذا تكررت الزيارة ، تأكد لك ان لدى الدكتور البصير اشياء يجب ان تخرج من المجلس الخاص الى الرأي العام لما لها من صلة مباشرة بالعصر الحديث تاريخا وادبا ، انه يعرف عن التاريخ العربي الحديث كثيرا ، وعن التاريخ العراقي اكثر معرفة المطلع على الدخائل القريب من الاحداث ، فلم لا يؤلف من ذلك كتابا ـ ولو على سبيل المذكرات . ويعرف عن الادباء امورا كثيرة جدا لا يعرف بعضها سواه ، وفي اعلان هذه الامور تقريب للناس نحو الصحيح من فهم آثار اولئك الادباء والحكم عليهم . فلم لا يجمع تلك الاخبار في كتاب ـ ولو على شكل ذكريات . واكبر ما نخشاه الا يقتنع الدكتور البصير بصحة هذا الرأي ، واذا لم يقتنع البصير بشيء لا يمكن ان يخطو اية خطوة فيه .

تدخل هذه « الطلبات » في باب الطمع بالمزيد ، والا فان استاذنا الجليل قدم للبلاد وللادب ما ادى خدمة واقام مجدا .

علي جواد الطاهر — جامعة الرياض



غرناطة

مهداة الى زعيم النهضة الفكرية الاستاذ الكبير محمد سرور الصبان

الدكتور زكي المحاسني

* * *

حييت (غرناطة) وازددت اكوابي
شربا على نخبها واهتجت أحبابي

فقلت يا أخت أقوامي اما سنحت
لنا لقاءة مشتاق وغياب

مررت فوقك في خفاق طائرة
وقد أطل فؤادي نحو أتراب

وددت لو ارتمي في غير متلفة
حتى ألم بساحات وابواب

يا دار اندلس ما رم فيك هوى
لكن ترمم قلبي بعد أوشاب

الا يزال لعرب فيك منسرح
يروح بالروح في مسحور ألباب

وهل صهيل خيول من معاركهم
تموج فرسانها في طي احقاب

أرى المصلى على التكبير ماثلة
صلاته في تسابيح بمحراب

لا بد من روعة الذكرى لواصفها
اذا تغنى بها في جمع شراب

خذني (لغرناطة) ألمم بفتنتها
في يوم بهجتها في عيد صخاب

أشم فيها رياحين النساء اذا
مرحن في زينة تحلو لخطاب

ملم لي العمر من بعد السنين فما
احلى الحياة بزورات لاصحاب

واقرأ (لرامون) أبياتي فان بها
لهفات ذكرى بأشعار وآداب (١)

جددت فيها وداد الفكر وانبعثت
خلالها شعراء بعد كتاب

وطاف كل خيال في محاسنه
يأوي الى دارة تغلي باشباب

(اسبانيا) ، يا مثار العرب في ثبج
من الجمال على ميمون احساب

فديت أهليك لما طاف موكبهم
يوم الشعانين في مجنون جواب

على الخيول العذارى ركب جانبها
في قبعات وطيات بأثواب

وفي الايادي أسواط منمنمة
تفدى اصابعها في حمر خضاب

والشعر أسود هفهاف بعاطره
وللعيون مناجاة بأهداب

وللمغنين جوقات ترن على
اوتارها نغمات وفق شباب

قيثارة من صبايا لحن أندلس
يهفو لنغمتها الموتى بأسباب

من معبد نبعها في الدهر مائجة
بها التناغيم من ايحاء زرياب

غنت بها (ماريا) والصفق في يدها
والرجل يضربارضا رقصهاالسابي

مدت بصوت رخيم اللفظ ليلتها
فاذكرتني بأصوات لاعراب

اني لاسمع أجدادي بآهتها
فهل أعيدو بأرواح وأعصاب

من خلفها ندل رنت معازفهم
على كراسيهمو مالوا باطراب

واسرح بروحي على افياء معركة
يجول (انطونيو) فيها بقرضاب

عليه حلة حرب زان نسجتها
مذهب الوشي في وهاج أقصاب

يتيه في مشية الجبار في ملأ
كانه بينهم رب لارباب

في حلبة لصراع الثور دائرة
بالناظرين بادهاش واغراب

يعلو مدرجها قوم لهم شغف
بمشهد مزجوا فيه بانساب

وزحزح الباب عن ثور له خور
رج الفضاء به رعدا باغضاب

فجال (انطونيو) يلقاه مدرعا
سترا يجول بكف ذات نشاب

والناس في نشوة الافزاع حائمة
على مواجدهم فينات احراب

وثور الثور حتى جن فائره   فعج واهتاج في قرن وفي ناب
فهب انطونيو يوليه بارقة   بطعنة نزلت منه بعطاب
وحط في ظهره الحربات واقفة   رمز البطولة في روعات وثاب
وعيب في حيوان يرتمي رهقا   امام قوة انسان بلا عاب !
ناديت (انطونيو) مفتان غانية   كانت تشاهده في لحظ خلاب
ألقى الى صدرها مزدان قبعة   اشارة لهواها يوم ترحاب
لولا الهوى وهو جبار الوجود لما   ظفرت ، ان الهوى رهن بالهاب

خذني لتهدأ أعصابي الى نزه   في صدر (غرناطة) تحلو لمجتاب
الى قصور بناها العرب وارفة   ماست بها غانيات بين أسراب
واعطف علىجنة (الحمراء) ملهمتي   بالشعر تنفحني وحيا بتسكاب
صحن الاسود يصب الماء منهمرا   اشداقها فيه من معسول وهاب
وشم أخدان في بيت مفاتنه   في النقش تنسي خياما ذاتأطناب
والخط في حائط آياته نطقت   بقدرة الله في توحيد غلاب
أعود بالدهر ادراجا لمحتفل   أشم في القصر محفوف بحجاب
هذا الخليفة قد هبت لمقدمه   قواده ورجالات بأقطاب
في يوم امجاده والسعد يرفده   والعز بين يديه وفد نواب
وبيت امواله تطفو دنانره   وارضه في زراعات واخصاب
فهل حسبت الدنى تصفو لنعمته   من بعدما سمت فيه بأحزاب
عدا عليهمن الجيران ذو طلف   فهده بذوي بطش وسلاب
فزال عن ملكه وانجاب معهده   فبات يبكي علاه بين نداب
وللسلاطين أيام ويردفها   مهوى عن العز في تقليب دولاب
يا من عرفت (ابن عباد) ونكبته   هذا جزاء الذي يمنى بكذاب

تلك القصور غدت افواف متحفة   الى الحضارة قد متت بأصلاب
تريك اوجه تاريخ بكوكبه   قد اشرق الغرب اذ عادت بأواب
لها حفاظ على العرب الاباة وفي   العصر الحديث لها مجد بآراب
كم سائح جاء مغناها المشوق له   وكان سحر المغاني خير جذاب
فلم اجد طائفا في أرض اندلس   الا تولاه وجدان باعجاب
أهلوك أعراقهم تسري بمثل دمي   فلست عندهمو من قوم اغراب
فاشرب لذكر بلاد كان ساكنها   قومي ورفع يدأ فيها بأنخاب
واصفح عن(السيد) قدكان الغرامله   وقاء (شيمين) يغريه بأوصاب

(غرناطة) يا محيا السحر في بلد   جنات عدن به حفت بأعناب
عليك مني سلام الشام طاب به   نفح الرياحين من جنات طياب

دمشق   زكي المحاسني

---

(١) كان الدكتور زكي المحاسني يتوق الى زورة لاسبانيا ليلقى بها صديقه الكاتب الكبير (رامون ميناندیز بیدال) رئيس المجمع التاريخي الاسباني الساكن في حي (شامارتان) بمدريد ، تلبية لدعوته ، وكان قد حياه في مطلع من مطالع (الاديب) بقصيدة لذكرى بلوغ الرئيس الخامسة والتسعين ، اذ احتفت اسبانيا بأجمعها واميركا اللاتينية وسفارة الجمهورية العربية السورية بمدريد ومعهد الدراسات العربية المصري ، بهذه الذكرى النادرة ، وخلال المادبة وقف الدكتور رامون المحتفى به فأخرج من جيبه قصيدة الدكتور المحاسني التي حياه بها وطلب الى السفير السوري الاديب تلاوة القصيدة التي اشاعت عزة وتكريما وطيب ذكرى وكانت تمتينا للصداقة العربية الاسبانية ((الاديب)) .

الدرج المقفل

بقلم الياس خليل زخريا

★

في كل قلب من القلوب مخبأ من مخابىء السر .
تنام في المخبأ ، على ركود النسيان، عناكب الذكريات .
... صورة ، كتاب ، ورقة ، وقطعة ورق ...
حتى .. وظرف طاف الطواف البعيد بين دروب الدنيا ،
ودروب النفس ، وطول الانتظار في نافذة الشوق والحنين ،
في الدرج المقفل اشياء ثمينة واشياء تافهة ...
قد تكون التافهة التافهة ...
.. قلم رصاص مخدش او محجر ،
.. ورقة ورد يابسة بين صفحتي كتاب ،
قد تكون اشد عطاء من ثمينة والف ثمين .

في الدرج المقفل كهوف عميقة مقفلة
ومدت يدها الى الدرج
واخرجت من بين غباره خيوط حياتها الضائعة المشبكة .
ومضت تمزق ، وتلقي بها نتفا في سلة المهملات .
.. فكرت قليلا ، ثم رآها تنهض على مهل تأخذ بالسلة وتمضي تفرغها في فتحة الموقد .
تشعل فيها بأطراف اصابعها القاسية السنة النار .
وهبت السنة النار الجائعة تأكل الورق ،
وقطع الورق ، اكلا أكولا .
وتطاير الرماد الاسود ،
وسقطت من الرماد الاسود قطعة على ظاهر يده .
حاول في نهم التطفل ان يقرأ ما تبقى عليها
من حدود الحبر وزوايا الكلام .
آثار بادية ملتهبة من آثار الحياة .
بقية باقية من تجمع الدم في شرايين القلب
تحمل مطاوي الورق من الذكريات فوق ما تحمل مطاوي الصدور
وتنام في ثنايا الورد وجوه الايام

كما تنام في مسارب الفكر خواطر التأمل ...

.. ما بالها حذرة خائفة ؟!
هل وثبت على ذهنها من الدرج المقفل اشباح
وحكايات ،
ورواسب حكايات ؟
او تستقر اشباحها على الواح ذهنها استقرار الكتب على رفوف الدار !
... خائفة !!
من من ، هي ، خائفة !!
... مشتاقة !!
الى من ، هي ، متلهفة ، مشتاقة !!

كانت البئر القديمة التلمودية واسعة قديمة ...
كانت بعيدة ، نائية ...
كانت في طرف اطراف البرية المترامية البعيدة النائية .
لا عين ترى ولا اذن تسمع .
وقذف به ...
قذف بأخيه في فوهة البئر .
وادار ظهره ومشى ..
وسار ، وسار فيه ضميره .
وحفرت يد الله في رمال صدره بئرا ،
كانت على الزمن بئر الضمير ،
وصورة الضمير .
وانتصب ضميره امامه ،
عمود ممدد من النار والدخان .
تلتف عليه اواصر النفس وتتمزق بين اعاصير الارض ولفتات السماء
كلما حاول أن يهرب من نفسه لحقت به اوزار نفسه .
لا الورد ليهرب ورقه من عبيره ولونه
ولا الشوك لينجو حده من قساوته واذاه .
يتكىء الورد على الشوك فتفوح من رؤوس الشوك نفحات الطيب .
ويدور الزمن ، ويتيبس الورد والشوك ،
وينقطع في الوهم والتوهم سيل الطيب .
ثم يدور الزمن، فاذا بالورد والشوك، مقيمان معا في الخميلة ما اقامت الخميلة ،
مقيمان في الجيرة المستحبة ، ما طابت في الالفة الاليفة مودة الجارين الخصمين ،
ورد يقسو على قساوة الشوك ،
وشوك يتطيب وحده بماء الورد .
والارض درج مقفل
والحياة درج مقفل
فاذا ما خبأت الارض في الارض ،
اذا ما كتمت أشياء الحياة في رواق الحياة
اذا ما احرقت اوراق العمر في موقد العمر
يتبقى لك في اوعية نفسك ما تبقى
يدوم في خليج ذاتك ما يدوم .
فلا العاصفة لتتلاشى في مرامي الفضاء .
ولا المطر ليفنى في عباب البحر .
ولا عناوين الحياة لتنتهي في فصول الحياة .
من غير معالم ولا خواتم .

تخفيه عن عينك ولا تخفيه عن قلبك
فاذا ما اشتقت اليه ،
مدت عينك شباك عينك
تحمله اليك ،
تنشره امامك على صواري بصرك
ومدت ، اختك ، يدها القاسية الى الدرج .
ومد يده اليقظى على يدها الى الدرج .
..لا.. لن تمزقي منه ورقة واحدة .
كل ورقة تمزقينها قطعة من نفسه في نفسك

وجه بلا مرآة

سألت الريح عن صحبي وأحبابي
فأنت في شعاب الصخر ،
وانعطفت الى الوادي
لتلقي خيبتي المره ،
على رمل المسيل الناشف الصادي
وجاء الليل ،
ذرى رمله النجمي في صمتي ..
فأرقني ،
وأطلق من حرير الريح انساما ،
فأوجعني
وكان الليل بعض الصحب والاحباب ،
بعض العطر والايناس والمرح ،
ودفتر عالمي العائم
على موج من الاحزان والفرح

أيا صحبي .. وأحبابي
أنا وجه بلا مرآه
انا زهر بلا عطر
انا غيم بلا مطر
انا نهر بلا مجرى
انا فعل بلا جدوى
انا سفن بلا شطآن
انا لا شيء دونكمو
انا لا شيء !

سألت الريح عن وجهي صباح اليوم
فقالت عند احبابك
سألت الريح عن اسمي ،
فقالت بين اصحابك
وغلت في شعاب الصخر ،
وانعطفت الى القمه ..
وها انا في دروب الارض ،
من باب الى باب
الاقي وجه احبابي !!

حلب

صباح الدين كريدي

تخفينها عن نفسك .
ابسطي على رفوف البيت اوراق حياتك
له من حياتك ، من خفايا حياتك ،
ما تعطين، انت، من معطيات حياتك .
افتحي امسك من غير خوف ولا وجل
اقرئي فيه .
تحدثي عنه .
الجرح الذي يختفي خنجره لا ينقطع في نزف الدم
نزف دمه .
هذه الايام المتجمدة منك على ادوات الدرج
هي الزمن الدائم
كتم عن العين ولم يكتم عن البصيرة

وترتعش الستارة فترتعش معها
اطياف الليل
واطياف النهار

كل كأس على شفتها حكاية والف حكاية
كل شفة على شوقها الف امل وامل
والوصل تراب وماء .
تصهر الشمس التراب والماء
فتصيرهما طينا نقيا ،
ثم تصهر الشمس الطين النقي
فتحوله آجرا
ثم تلفح الآجر فتحوله الى البرتقال الاحمر
كأنه اعراف الديكة على الندى
والفجر في مشارف الجبل .

لم يكن جبانا ،
لم يكن ليحب الجبناء .
هذه التوافه والنوافل من عمرك عزيزة
عزيزة ، في صلاة عمره
كانت له في مكتبة عمره سفره اليومي
في رحلات واحاته
في كل كتاب كلمة نابئة نبوءا
في كل فصل عبارة نافرة نفورا .
واضعف الاشجار شجرة لا تنبت
في ملتف ساقها واغصانها
اغصان
وشباك اغصان
ولفت ساعدها على عنقه تهمس في اذنيه
من اخبار درجها ما تهمس .
ومد عينه في الدرج
ثم اغمض في الهتاف على الدرج عينه
ثم انتفض من التأمل كأنما احرقت النار منه ضلعيه .
وان الذين يخلعون ادراجهم الموصدة
.. الذين يحرقون اوراقهم الموصدة جبناء
يخافون ، كأنهم يخافون ، من التلفت
في نهارات العمر ، وليالي التنفس .

لاخته الدائمة ، في بيتها الدائم ،
درج واسع تفتح به اوراق المحبة
على السمر السامر
في هتاف الريح

الياس خليل زخريا

كمال

وساوس صغيرة

بقلم كمال رستم

كل شيء قد اعد واحكم تدبيره .. ولن تمر ايام قلائل الا ويصبح الحلم حقيقة .. وتهالك « وديد » على المقعد في أعياء .... والقي نظرة خاطفة على زوجته التي كانت تجلس قبالته على الفوتيل تقوم ببعض اشغال الابرة للمولود المنتظر ... كان يبدو على وجهها الجميل الارهاق وكان شعرها الاسود الحالك يزيد من بياض بشرتها ونصاعتها ... أما بطنها فقد ارتفع وظهر نتوؤه من الثوب الفضفاض الذي ارتدته خصيصا لمناسبة الحمل ... وتهادى اليها صوته خافتا كأنه صادر من مكان بعيد يقول :

– ميرفت ... لقد عدت لتوي من ادارة الجوازات ...

وأشرعت اليه عينيها الدعجاوين وقالت مستفسرة :

– هل أعطوك جوازي السفر ..

– نعم .. هاهما ..

وغيب يده في جيب سترته واخرجها وبها الجوازان ثم ما لبث ان اعادهما الى مكانهما كأنما يخشى ان يثبتهما أحد وقال لها :

– ارجو ان تكوني سعيدة ...

وجرت على شفتيها بسمة واهنة ثم قالت :

– بكل تأكيد يا عزيزي ...

وكان يعلم انها تكذب ... ففي الايام الأخيرة حاولت ان تقنعه بان يعدل عن فكرته الا ان محاولاتها ذهبت بددا وقبض الريح .. كانت فكرة طرات على ذهنه المكدود .. ... وخالها لن يستقر بها المقام طويلا ... شأنها شأن عشرات الافكار التي تتواكب في ذهنه والتي لا تظهر الا ريث ان تزول ... ولكن هذه الفكرة الفذة سكنت راسه على غير عادة فلا يستطيع منها فكاكا .. قال لزوجته :

– ثقي يا ميرفت ان الحياة في كندا ستستهونك ... وكما تعلمين ان صاحب العمل افتتح فرعا كبيرا هناك وقد وقع اختياره علي لادارة هذا الفرع .. انه لا يثق بغيري .. فلم القلق ؟

قالت زوجته وهي تحاول ان تخفي حمرة خفيفة تضرج بها وجهها :

– أنا .. أنا لست قلقة .. اطلاقا يا عزيزي ..

وراحت عيناها ترودان في ارجاء الصالة الرحيبة التي كان مقدرا لها أن تبارحها بعد ايام .. وربما الى الأبد ... وحطتا على صورة كبيرة معلقة فى صدر صالة يقع عليها الضوء الخافت ... فيبدو للرائي بلونها الحائل .. كأنها تتحدى الزمن .. كانت الصورة تمثل والدة وديد وقد أوسدت ركبتيها طفلا صغيرا .. بينما وقفت بجانبها طفلة غريرة .. وكانت الابتسامة الوضيئة تبدو على الشفاه الثلاث .. تلك صورة زوجها وديد واخته سامية حينما كانا لا يزالان طفلين – عزيزين تفرد امهما عليهما جناح الرحمة والحب .. وهاقد شب الطفلان الآن .. واصبح وديد وكيل ناشر عالمي كبير في القاهرة يتقاضى مرتبا محترما ... ويمتلك عربة « شيفروليه » يغبطه عليها اي زميل تخرج معه في الجامعة في سنة واحدة ... اما الأخت فقد تخرجت هي الاخرى في الجامعة وبنت بمهندس شاب يشغل مركزا ممتازا بشركة كيما بأسوان .. كبر الطفلان واصبحت لكل منهما حياة سعيدة موهوبة ... وها هو وديد لن تمر بضعة اسابيع الا وتضع له زوجته ابنه الاول .. يؤنس وحدته وتحلو به الحياة .. ويتجدد به الأمل ... فما بال وديد .. يريد أن يترك هذه الحياة العريضة كلها .. ويغامر بمستقبله ومستقبلها ومستقبل الطفل في بلاد جديدة وبين أناس جدد ...

اية خاطرة مجنونة أستبدت برأسه حتى يرتكب هذه الحماقة الكبرى ؟ ... وكيف وسعها ان تتابعه في فكرته هذه وهي تعيش هنا بين أهلها وذويها على ارض الوطن الحبيب ؟ حقا عارضت في أول الامر سفرها معه ورجته ان يسبقها الى هذه البلاد الجديدة حتى اذا استقر في عمله الجديد ورتب لها الحياة الرغدة التي تريدها .. لحقت به .. ولكنه ..رفض ان تبقى وحدها .. واصر على ان ترافقه .. حتى الايام القلائل الباقية على مولد الطفل لم يشأ أن يجعلها تنفقها في مصر ...

واخرجهما من تأملاتهما المطرقة .. وقع أقدام امه قادمة من المطبخ ... انها تحرص دائما على راحتهما وتشرف بنفسها على كل شيء في البيت .. حتى الطعام تأبى على الزوجة ان تطهوه فتباشر طهوه بنفسها .... وكانت قد اعدت طعام العشاء وجاءت لتسألهما ان ينتقلا الى المائدة ... ليتناولاه .

وكانت فارهة الطول مهيبة ... في الحلقة الخامسة .. تضع على راسها « ايشارب » وتمسك بيدها منديلا تضعه على فمها . وقال لها وديد وهم جلوس على المائدة :

– امي لقد ظهر علاج جديد ... علاج سيشفيك تماما باذن الله ...

قصة

وخرج صوتها مضطربا لا يكاد يبين .. فقد كانت تعاني من مرض عضال .. من سرطان في الفم وقالت

– اي علاج يا بني تتحدث عنه .. هذا المرض ليس له علاج ...

قالت ميرفت أن الطب تقدم يا ماما ... ولا بد ان يكون هناك علاج ...

– قال وديد : وقد اكد الدكتور وصفي ان العلاج الجديد يزيل كل الم ... وانه ينتظر ذهابنا اليه غدا ...

قالت الأم وقد بدأ في وجهها الالم :

– امرك يا بني كل ما اجوه أن يمد الله في عمري الى ان أرى ابنكما ..

ومس كلامها شغاف قلبه ... منذ اسبوعين حدثها بعزمه على السفر الى كندا ... هو وزوجته فاستبد بها الغضب وثارت ثورة عارمة ... آذاها ان يفكر ابنها – مجرد تفكير – في أن يسافر ويتركها وحدها تنتظر الموت ... وبكت بكاء مرا .. ولم يكفكف عبراتها الا وعده لها بأن يقنع صاحب العمل بان يبحث عن شخص آخر ليشغل المنصب الكبير الذي رشحه له ... ولكن نفسه بقيت مع ذلك تنازعه الى قبول المنصب ... فلم يرفضه ... وكان يخشى ان يواجهها بحقيقة ما استقر عليه رايه ... واخفى عنها تدبيره حتى يفاجئها بالأمر الواقع ويرحل .... وأقنع نفسه بان لم يعد يحتمل العذاب الكبير الذي تتعذبه . وان السفر .. جاء رحمة من السماء بعيونه التي أرقها السهد والأرق ..

ووضعت امه في طبقه بعض قطع من « الروستو » وناولته بعض العيش المقدد الذي يحبه وقالت له :

– هل نزور سامية اختك في الاسبوع القادم .. انك لم ترد على رسالتها .. واسقط في يده .

فانه كان قد تعمد ان يتجاهل رسالة أخته التي طلبت فيها ان يقوموا ثلاثتهم بزيارتها ... وكيف يقوم بزيارتها وهو نفسه لا يدري ان كان سيكون موجودا في مصر كلها في الاسبوع القادم أم لا ... ووجد نفسه يقول لأمه :

– أنت ترين ميرفت يا ماما ... ان المخاض قد يجيئها بين يوم وليلة ...

قالت : ميرفت باق على ولادتها شهر يا وديد .. اليس كذلك يا ميرفت ..

وأمنت ميرفت على قولها ... وقالت أمه :

– نتوكل على الله ونسافر الاسبوع القادم .. ماذا قلت يا وديد ؟

– امرك يا أماه ...

وقام من على المائدة ... وغسل يديه .. ثم مضى الى غرفته ودلف منها الى الشرفة .. كان يريد ان يخلو الى نفسه قليلا .. حتى ميرفت زوجته .. كان يريد ان يتخفف منها فأسر اليها ان تبقى مع امه ... واسترخى على المقعد الطويل ملقيا بظهره كله عليه .. وممددا رجليه الى ابعد مدى ... وهو في هذا الوضع أشعل دخينة وراح يتأمل حلقات الدخان التي تنعقد منها فوق رأسه .. ثم اخذ يرقب نجما شاردا فى قبة السماء كان يوامض عينيه .. وكان الهواء ساكنا هامدا فلم يحرك أوراق الاشجار القائمة على حفافي الطريق .. وحث أفكاره الا انها كانت هي الاخرى هامدة ساكنة لا تريد ان تتحرك .. وأفلت فمه صيحة مكبوتة وقال :

– ماذا افعل يا ربي ... ماذا أفعل ...

وتفززت أعصابه .. وضغط على شفتيه .. وبقى هناك يعتصره الألم .. كان لا يدري ما الذي يستطيع ان يفعله .. فمنذ سنوات اكتشف الاطباء مرض امه بسرطان الفم .. ولم تجد الجراحات العديدة التى اجريت لها . وكل ما كان لها من اثر .. انها خلفت آثارا شائهة على فمها ووجهها .. وعطلت قدرتها على الكلام .. وعرضها على كبار الاطباء العالميين ولكنهم كلهم هزوا رؤوسهم مؤكدين انه لا يوجد علاج شاف لمرضها . وشاعت في قلبه كآبة كبيرة وهو يذكر الألم المبرح الذي ينتابها .. وترددت في أذنيه أصداء آهاتها وأناتها الرهيبة في هداة الليل وتمثل الليالي التي الف ان ينتفض فيها على صيحة الم ... مذعورا وقيامه الليل كله الى جانبها وقد لفته حيرة معتمة لا يدري ما يجب ان يفعل ... سنوات طويلة مفعمة بالأسى والالم مرت به كحلم مزعج مروع ... فأين كان مخبئا له هذا كله ... وضاعف من المه ان مرض أمه صاحب زواجه .. فلم يذق ابدا في زواجه طعم الراحة .. وانعكست هذه الحالة على زوجته . فعاشت بدورها تجتر الشقاء والتعاسة .. واستحال البيت القديم السعيد الى جحيم لا يطاق .. وكأنما ارادت الاقدار ان تسخر منه وتمتحنه في بنوته وفي قوة آماله معا ، فساقت اليه صاحب العمل يلوح له بالمنصب الكبير الذي ينتظره في هذا البلد البعيد ... ولكنه ايضا كان هو واخته لا يزالان طفلين عزيزين ... وهي تبذل لهما من ذات نفسها ومن مالها الى ان تخرجا في الجامعة ... والتحقا بالوظيفة وتزوجا .. فهي قد ادت واجبها خير آداء ... وباتت تنتظر منهما أن يردا لها في شيخوختها وفي مرضها الصنيع الجميل الذي صنعته لهما ؟.. انه لا يحتمل ان يراها وهى تتعذب وتتألم .. وكم من مرة نازعته نفسه الى ان يهرب بنفسه وبزوجته بعيدا ... لانه عاجز تماما عن ان يفعل شيئا لينتشلها من براثن هذا المرض ... فهل يبقى الى جانبها الى ان يقضي الله امرا .. ولكن ما لخير في ذلك ؟... وكان قد اقنع نفسه بأنه لا جدوى من بقائه ... فسار شوطا بعيدا في انجاز اجراءات سفره .. فاستخرج

ليومه جوازي سفر له ولزوجته .. وسوف يذهب من غده الى شركة الطيران ليحجز له ولزوجته مكانين على أول طائرة تقلع بهما الى بلاد الآمال .. دارت هذه الخواطر كلها في ذهنه وهو مسترخ في كرسيه .. يرقب النجم البائق في القبة السوداء .. وتسفح وجهه نسمات البرد الباردة .. ودخلت ميرفت في هذه الآونة الى الشرفة وراته جالسا هناك وعيناه زائغتان .. وفكره شارد الى بعيد .. فتدانت منه واوسدت راحتها راسه وقالت له :

— اما آن لك ان تدخل ...

وانتبه الى نفسه وقام على الفور ودخل معها الى الحجرة واستلقى في تراخي بدن مجهد على الفراش وقام في الصباح مجهدا مكدودا .. بعد ليلة ليلاء قضاها فريسة لحلم مزعج تراءت له فيه أمه وهي على فراش المرض في عينيها الدموع ، وفي وجهها الالم .. وكانت تمسك بتلابيبه وتسترحمه بان يبقى الى جانبها ... وهو ينتشل نفسه من قبضتيها ويتناءى عنها وقد ندت عنه ضحكة ماردة فهو لا يبالي وامه تحاول أن تصرخ ولكن الصوت لا يخرج من فمها المريض ...

كا نحلما مروعا صاحبته تفاصيله الشائهة في الصباح على غير عادة . فقد طالما امسى حالما واصبح وقد أنسى كل شيء ... أما هذا الحلم المروع فقد استقر في واعيته وتشبث بها تشبثا عنيدا ... وصافحه وجه أمه وهم على مائدة الافطار ... وتعانقت نظراتهما وخيل اليه ان نظراتها أغلال تكبل ارادته ... احس كما لو كانت تعلم بما يجول بخاطره .. فتراجعت نظراته عنها وأنهى افطاره على عجل .. وغادر البيت معجلا .. وفي الطريق صحبته افكاره وهو يقود العربة على غير هدى وبرق في ذهنه سؤال :

— ما الذي يجب ان اعمله ؟

وقال له عقله : ليس هناك طريق ثان يجب ان تعمله .. طبيعي انك ستذهب من فورك الى مكتب الطيران وتحجز مكانين على أول طائرة تقلع بكما الى كندا .. هذا هو عين العقل .. وتثاءب ضميره وقال : ما هذا الهراء الذي تقوله .. ايها العقل .. كيف يدع أمه في اللحظات الاخيرة وهي أحوج ما تكون الى عطفه وحنانه ويفر منها هاربا الى هذه البلاد البعيدة ... ان هذا هو عين العقوق .

— فيم العقوق يا صاحبي ؟ ... لم لا تقول ان الامومة الحقة تقوم على الايثار لا الأثرة .. انها لن تفيد من بقائه الى جانبها شيئا ... الا ان يتأوه لأناتها وآهاتها وهي ستموت حتما ... والموت حقا فما الخير في بقائه الى جانبها !

وصاح ضميره :

— بل وجوده الى جانبها مهم للغاية انه أقوى من كل علاج تستطب به ... فهذا المرض لا يهزمه الا الامل .. وابنها بالقياس اليها هو بارقة الامل التي تضيء حياتها ... فلم تطفيء شعلة الامل الوحيدة الباقية في حياتها .

— هراء ... ايها الضمير .. ان هذا المرض شديد كالموت .. محتوم كالقضاء .. فلنتركه يمضي .. ويبني مستقبله .. انها فرصة ... فرصة موهوبة والفرصة لا تواتي مرتين ..

ورأى نفسه يردد قائلا اجل انها فرصة ... فرصة موهوبة ولن تواتي مرتين ويجب ان أنتهزها مهما كلفني الامر .. ولا خوف على امي من سفري فسوف تذهب الى اسوان وتعيش مع ابنتها .. وسوف تكون طلباتها عندها مكفية وحاجاتها مقضية .. ورغم كل شيء فقد تحملت في شجاعة وصبر .. نصيبي من مسؤولية مرضها وعلى أختي ان تتحمل نصيبها هي الاخرى واذا كانت أمي لا ترغب في مبارحة البيت فغدا تروض نفسها على الاقامة مع ابنتها وتطيب لها الحياة .. ووجد نفسه يتجه مسرعا نحو البنك الذي عهد اليه بتحويل نقده الى العملة الاجنبية ... وكانت الاجراءات سهلة للغاية فلم يبق بالبنك طويلا .. ومر على مكتبه وانجز بسرعة بعض الاعمال ثم اتجه بعربته من فوره الى مكتب شركة الطيران ... وصرف تذكرتين على الطائرة التي تقلع في الاسبوع القادم .. واحدة له والاخرى لزوجته ... وتنفس الصعداء واحس كأن عبئا ثقيلا انزاح من فوق صدره لقد انتهى من عمل كل شيء ... ولم يبق عليه الآن الا أن ينتحي مكانا هادئا .... اي مكان ويكتب لأخته يحدثها بما استقر عليه رايه ... والاجراءات التي اتخذها ... ثم يطلب اليها في النهاية أن تحضر على أول طائرة من أسوان لتكون الى جانب أمها قبل سفره ...

كان هذا هو ما عول على فعله .. ولم يكذب خبرا .. ومضى الى شرفة سميراميس ... وجلس الى أول مائدة قابلته ... واخرج من حافظة اوراقه ورقة ... وراح يكتب ...

اختي العزيزة ..

ولكن القلم توقف عند هذين اللفظين ولم يزد حرفا واحدا ... وعبثا حاول ان يستجمع أفكاره ويبرر العمل الذي أقدم عليه ... ما الذي ستقوله عنه أخته ؟ ... بل ما الذي سيقوله عنه الناس جميعا أجل ما الذي سيقوله عنه الناس ... وما الذي سيقوله هو لنفسه ليبرر هذا العمل الشائن الذي اقدم عليه ... انه لا يدري ... وتراءت له صورة أمه ... وقد وثقت بكلمته ... ونحت عن ذهنها كل خاطرة لسفره ... وتمثل وقع الصدمة عليها حين تعلم انه كان يغرر بها طوال الوقت ... من يدري فلعل وقع الصدمة عليها ان يكون شديدا فتقضي لساعتها ... وعندئذ يصبح قاتلا .. قاتلا لامه. واستبدت

حلم مجنح

أين رؤى الشباب والهوى
وعهدنا القديم
أين خمائل الصبا
ودربنا النشوان في حدائق
النجوم
أكل ذلك انقضى
مع السنين والرياح والتعب
أم أنه على مدارج السحب
صدى براءة يحن للمصير
في أفق مرتعد مهجور
عبر أصيل شاحب حزين

يا ليتني ألمح طيف امسنا القريب
وأستظل بالمساء
وأملأ الفؤاد من نسائم الجنوب
وأعبر الليل مع القمر

الى حقول القمح والزهر
حتى ألملم الشذى وأقطف الثمر
حتى أنام ساعة ،
في أيكة الظنون
أحلم بالاشواق والحنين
أطوي على خيولها بقيا من اليقين
توشك أن تنحل ،
في بحيرة الردى

الحلم المجنح الكسير
في قبضة المستقبل الكبير
يبحث عن جذور .
فالتهبي يا نار ...
وابتلعي الجدار .

دمشق — رضوان عقل

هذه الخاطرة براسه وكبرت في ذهنه حتى تمثلها حقيقة واقعة .. واحس بالعبرات تخنقه فطوى الورقة ونهض واقفا وغادر الشرفة الى عربته ... وتمتم : اذن لا فائدة ..

وقهقه عقله وقال : لا شك انك مجنون .. ان هذه الفكرة البسيطة فكرة رحيلك كبرت في عقلك المجنون لا اكثر ولا اقل ... انك ستنقضى على أعصابك ... لانك مجنون ...

واحس براسه يكاد يتحطم وترددت أصداء الحيرة بين حناياه .. وعجب لنفسه كيف يعود فيفكر مجرد تفكير في مرض أمه وقد قتل هذا الموضوع بحثا من قبل وانتهى فيه الى قرار واعد العدة واحكم التدبير ...

ولما آب الى بيته .. وقابلته ميرفت زوجته سألته في لهفة :

— ما الذي فعلته ؟ ..

قال لها في اعياء :

— اتممت كل شيء ... تحويل النقد وتذاكر السفر !

قالت وهي تخفي دمعة انحدرت على خدها :

— اذن فقد انتهى كل شيء .....

واضطرب صوته وهو يقول :

— نعم انتهى كل شيء هنا .

قالت له : وهل كتبت الى اختك؟

ورغما عنه جمحت به نوازي غضبه وانفجر قائلا :

— وماذا اقول لها .. ماذا اقول لها ...

وجاءت امه على صياحه وقالت من خلف المنديل الذي تضعه بيدها على فمها ...

— ماذا دهاك يا حبيبي .. ومن هى التي تريد أن تقول لها ...

وصعد نظره الى وجهها الحبيب الذي طالما صافحه بابتسامته العطوفة الحانة .. وتمثلت له في لحظة واحدة مراحل طفولته وشبابه وتتابعت أمام عينيه صور احتفال امه بكل شأن من شؤونه وحدبها عليه وتعلقها به هذا التعلق الكبير ورآها وهي معافاة سليمة .. موردة الخدين طلقة المحيا ... تمتلىء قوة ونشاطا ... وتدب حركتها في ارجاء البيت ... ثم قابل صورتها هذه بصورتها الآن ... وقد حال لونها وهد المرض كيانها ... وشوه وجهها .. واحالها انسانة اخرى تمد يدها للناس بالسلام وتشيح عنهم بوجهها حتى لا يقعوا على موضع الجراحات من فمها .. فاذا ما تحدثت تعثر الكلام على شفتيها فهو لا يبين .. وظهر له هول وبشاعة ما كان بسبيل .. ان يقدم عليه .. ورأى نفسه رغما عنه يحتضن امه ويقبلها وقال لها من خلال دموعه :

— أماه ، لماذا لا نسافر الى سامية غدا .. اننا في حاجة لان نقضي عندها اكبر مدة ممكنة للراحة والاستجمام .. وقبلته امه قبلة أحس ان بها عصارة الامومة كلها .. وانها بددت من نفسه كل ما قام بها من وساوس صغيرة ..

القاهرة — كمال رستم

من اعلام الفكر والادب في فلسطين

محمود السمرة - بندلي الجوزي

زهدي جارالله

بقلم البدوي الملثم

* * *

١ ـ الدكتور محمود السمرة

ما جلست يوما الى الدكتور محمود السمره أو قرأته في رائعة من روائع قلمه السخي الا ومرت بخاطري حكمة المفكر المصلح الكبير سلامه موسى : « الكاتب العظيم يمكن ان يكون بعضه فيلسوفا أو بعضه عالما ، أو بعضه أديبا ، ولكن معظمه يجب أن يكون على الدوام انسانا ! » وهذه الخصائص تتمثل في الانسان الاديب الدكتور محمود السمره !

في قرية الطنطورة الغافية على الشاطىء الفلسطيني المغصوب ... والقائمة جنوب حيفا ولد « محمود » وأكمل في مدرستها الصف الرابع الابتدائي ، ومنها قصد ثانوية حيفا واتم دراسته الثانوية وانتسب الى الكلية العربية بالقدس ونال شهادة المترك الفلسطيني عام ١٩٤٣ وشهادة الانتر ميديت عام ١٩٤٥ ، وفي هذا العام عين مدرسا للغة الانكليزية في ثانوية طولكرم حيث كان يدرس طلاب المترك الفلسطيني وامضى في تدريسهم مدة سنتين . وفي عام ١٩٤٧ ارسل مبعوثا على نفقة حكومة فلسطين الى كلية الاداب في جامعة فؤاد الاول (جامعة القاهرة اليوم) ونال شهادة ليسانس آداب عام ١٩٥٠ وعين مدرسا للانكليزية في المدرسة الثانوية بالكويت (١٩٥٠ ـ ١٩٥٥) وفي العام الاخير قصد لندن ودخل جامعتها ونال في آب ١٩٥٨ شهادة الدكتوراه في الاداب . وكانت الاطروحة التي قدمها لجامعة لندن بعنوان :

The impact of western civilization and christian missionaries on syrian writers 1860 - 1918

وترجمة هذا العنوان : « أثر الحضارة الاوربية والارساليات التبشيرية في الفكر السوري ١٨٦٠ ـ ١٩١٨ » . وفي أيلول من عام ١٩٥٨ بارح لندن الى الكويت ليعمل في وزارة الارشاد والانباء والتقى بالعالم الاديب الدكتور احمد زكي في التخطيط لاصدار مجلة عربية تنفق عليها حكومة الكويت الشقيق ، وأخيرا أسفر الجهد المشترك عن صدور اول عدد من مجلة « العربي » في كانون الاول ١٩٥٨ ، وعين الدكتور احمد زكي رئيسا لتحريرها والدكتور محمود السمره نائبا له ، وظل الدكتور السمره يشغل نيابة رئاسة التحرير منذ صدور العدد الاول من «العربي» الى ان ترك العمل فيها عائدا الى الاردن . وخلال السنوات التي امضاها في الاشراف على هذه المجلة الكبرى تولى فيها تحرير باب « كتاب الشهر » بالاضافة الى مقالات منوعة كانت تنشر بقلمه بدون توقيع .

وفي صيف عام ١٩٦٤ استقال الدكتور السمره من عمله في « العربي » وعين استاذا مساعدا للادب العربي في الجامعة الاردنية . وفي شهر تشرين الاول من عام ١٩٦٦ رقي الى درجة استاذ النقد والبلاغة في الجامعة الاردنية وفي العام نفسه انتخب عضوا في مجلس الجامعة ، وفي شهر تشرين الثاني من عام ١٩٦٧ عين وكيلا لكلية الاداب في الجامعة الاردنية وما زال فيها على رأس عمله .

من الكتاب العرب الذين تأثر بهم الدكتور السمرة ، عندما كان يطلب العلم في الكلية العربية ببيت المقدس ، الكاتب العربي الساخر ابراهيم عبدالقادر المازني . ومن الكتاب البريطانيين الذين تأثر بهم :

١ ـ René Wellek ـ في النقد ،
٢ ـ Hemingway ـ في الرواية ،
٣ ـ Chekhov ـ في القصة القصيرة ،
٤ ـ William Blake ـ في الشعر ،

ونشر الدكتور السمره عشرات المقالات في كبريات المجلات العربية ، وأول مقال نشره في مجلة « القلم الجديد » بعنوان « المأساة في الادب الحديث » وأول مقال نشره في مجلة « الاديب » قصة فلسطينية بعنوان « اقوى من الحب » وهذه القصة اختارها نفر من الاساتذة الاردنيين الذين تولوا تأليف كتب القراءة العربية للمعاهد التابعة لوزارة التربية والتعليم الاردنية ، كما نشر مقالات في مجلة «العربي» ومجلة Middle east Forum

وبالاضافة الى المقالات والفصول النثرية التي دبجتها يراعة الدكتور السمره فقد قرض الشعر منذ كان طالبا في ثانوية حيفا ، لكنه هجر النظم بعد عودته من لندن الى أرض الوطن ، وامنية هذا المفكر الاديب ان يسعفه الوقت بفراغ ليعبر عما بنفسه في قصص تكون في مستوى فهمه لفن القصة .

من آثاره القلمية : كتب الدكتور السمره عشرات المقالات في النقد والادب والقصة واسفر الجهد الذي بذله في دنيا القلم عن تزويد الخزانة العربية بالمؤلفات المطبوعة التالية :

(١) مقالات في النقدالادبي ، طبععام١٩٥٩ ، (٢) القصة السيكولوجية طبع عام ١٩٦٠ ، ٣) هنري جيمس ، طبع عام ١٩٦٢ ، (٤) ارنست همنغواي ، طبع عام ١٩٦٢ ، (٥) روائع التراجيديا ، طبع عام ١٩٦٤ ، (٦) فن المسرحية ، طبع عام١٩٦٥ ، (٧) القاضي الجرجاني ، طبع عام١٩٦٦

ومن آثاره تحت الطباعة :

(١) غربيون في بلادنا ، (٢) ادباء الجيل الغاضب ، (٣) قضايا نقدية .

والشعارات التي يحملها الدكتور السمره في حياته تتلخص في هذه الكلمات :

ـ غناك في نفسك ، وقيمتك في عملك ،

ـ أعظم شيء في الدنيا هو الفكر ، فهو الذي يستطيع ان يبتكر وينتج ما تعجز عنه كل المعدات والآلات الحاسبة مجتمعة ، وحتى هذه ليست سوى نتاج من أنتجة الفكر الانساني !

نموذج من نثره : في الرابع من يناير (كانون الثاني) ١٩٦٠ ، توفي الكاتب الانساني البير كامو ، عندما اصطدمت سيارته بشجرة ، وهو في طريقه الى باريس ، وبهذا صمت ، الى الابد ، الصوت الذي عبر عن قلق عصره اصدق تعبير .

ويبدو لي ان كامو هو واحد من اولئك المفكرين من امثال « تين » و « هربرت سبنسر » ، الذين خلقوا لعصرهم ، ومثل هؤلاء المفكرين عادة هم اكثر المفكرين تأثيرا في مجتمعاتهم . وهذا هو السبب في ان كتابات « كامو » تركت دويا ، واستحقت تقديرا ، لانها عكست روح العصر ، وعبرت عنه . حتى ليذهب النقاد الى انه اكثر كاتب ، بعد « مالرو » يقبل الفرنسيون على كتاباته . وهذا هو السبب ايضا في ان الجدل الذي دار حول انتاج كامو ، والنقد الذي كتب عنه ، يفوق ما كتب عن أي كاتبمعاصر ، حتى ليفوق ما كتب عن «ت.س. اليوت» .

لقد كان كامو متدينا دون دين ، وسياسيا دون حزب (فقد ترك الشيوعية) ، وفيلسوفا دون فلسفة موضوعة) فقد انفصل عن الوجودية) ، وكان مؤمنا عميق الايمان بالانسان الفرد وبالانسانية ، وبضرورة الكفاح من اجل العدالة والحرية . وكان مؤمنا منذ كتابه الاول ، بأن مهمته في

الحياة هي ألا يعيش في الخداع ، وان يجعل من نفسه الصوت الناطق باسم الانسان المضطهد المظلوم . واول خطوة يجب ان يخطوها الانسان لتحقيق هذه المثل ، في رأيه ، هي ان يبدأ بنفسه ، فيقول : « ان اكبر معركة يجب ان يخوضها الانسان ، هي معركته مع نفسه .. معركة ينتصر فيها حب العدالة على شهوة الحقد ، وتستسلم فيها الكراهية والعنف والتعصب الاعمى ، لكل ما هو نبيل في الانسان » .

من اجل هذه الدعوة ، ومن اجل الانتاج الادبي الرائع الذي صاغ فيه هذه المعاني ودعا اليها بحرارة ، نال جائزة نوبل للاداب . ونجد هذه المعاني كلها في انتاجه كله .

وكامو الانسان ، جم التواضع ، قوي الحجه ، عذب الحديث ، خال من المرارة التي نجدها عند الوجوديين ، وهو الى هذا شديد التمسك بما يؤمن به من مبادىء ، وقد اثار حتى اعجاب من لايشاطرونه الرأي ، وذلك باخلاصه وتفانيه وصدقه وجرأته .

ولد كامو في الجزائر عام ١٩١٣ من ابوين من مزيج من الدم الفرنسي والاسباني ، وتوفي الاب والبير ما زال طفلا ، فنشأ في فقر مدقع ، والتحق بالمدرسة ، فعرف فيه مدرسوه النجابة والذكاء وحبه للعبة كرة القدم ، ونال منحة دراسية لدخول دار المعلمين ، وكان من الممكن ان يعمل في التعليم بعد تخرجه، لو لم يداهمه مرض السل ، وهو ما زال في سن السابعة عشرة .

وشفي كامو بعض الشفاء من مرضه ، وتنقل بين اعمال متعددة بسيطة قبل ان يتفرغ للكتابة ، وعشق المسرح ، فاسس في الجزائر فرقة من هواة المسرح اسماها « مسرح العمل » ، والتحق ب « فرقة راديو الجزائر المسرحية » ، ثم اسس « الفرقة المسرحية » ليقدم التمثيليات لعامة الشعب . وقد مكنته خبرته هذه من اتقان الفن المسرحي . وساح في اوروبا كثيرا ، ولم يستقر في فرنسا الا عام ١٩٤٠ حيث عمل في جريدة « باري سوار » ، ولكن الجزائر بقيت هي وطنه الذي يحن اليه ، ويهفو اليها قلبه .

ونجد في كتابات « كامو » التي نشرها قبل اندلاع نار الحرب العالمية الثانية ، مثل مجموعة مقالاته الافراح (١٩٣٨) احساسا عميقا بجمال البيئة الجزائرية من جبال وشمس وبحر ، ممزوجا بالاحساس بقسوة الفقر ، وآلام البشر . ولم يكن كامو قادرا على ان يخمد صوت هذا الالم ، بل لم يكن حتى مستعدا لان يخدع نفسه عن واقع هذا الانسان ، وهو الذي جعل مهمته الا يعيش في الخداع .

واشتعلت الحرب الاهلية الاسبانية ، ثم تبعتها الحرب العالمية الثانية ، لتؤكد له شقاء هذا الانسان ، وقد اصبح هذا الانسان المعذب ، من كل جنس ولون ، هو المحور الذي تدور حوله كتاباته . وفي عام ١٩٣٨ ايضا ، كتب مسرحية « كليغولا » وهي عمل ادبي رائع من ابن خمس وعشرين سنة ، وفيها جعل كامو الامبراطور الروماني رمزا « للانسان الاحمق » ولكنه مع هذا جعله يدرك ، بما له من بقية عقل ، مدى حماقة هذا الوجود .

وقد زاد آراءه توضيحا اثناء الحرب باصداره كتابين جلبا له الشهرة ، هما : « الغريب » (١٩٤٢) و « اسطورة سيزيف » (١٩٤٢) . والكتاب الاول قصة مكتوبة بصيغة المفرد المتكلم ، بطلها قاتل سفاك محكوم عليه بالاعدام . والكتاب الثاني بحث في الانتحار : فالفكرة المسيطرة عليهما كليهما هي مشكلة الموت . ولعل انشغاله بهذا الموضوع ، يعود الى ما شاهد بعينيه من مآسي الحرب ، كما يعود ايضا الى ما كان يعاني في جسمه من مرض . لقد تلفت كامو حوله ليرى ان مشكلة الوجود هي الموت ، ولكن لم يبلغ به التشاؤم حد ان يرى رأي « ريلكه » الذي قال : « ان اهم شيء في الحياة يمكن ان يقوم به الانسان هو ان يسلب نفسه الحياة ، اي ينتحر . لقد رأى كامو غير هذا : رأى ان الانسان المعاصر شبيه بسيزيف في الاسطورة اليونانية ، الذي عاقبته الالهة بالشقاء الدائم بان ينقل صخرة من قعر الجبل الى قمته ، فاذا وصل الى القمة بعد انهاك ، عادت فتدحرجت ، فعاد اليها يرفعها .. عملية من الشقاء لا تنتهي . هكذا بدت الحياة لعيني كامو : شقاء مستمر ، وعبث لا طائل تحته ، ولكن علينا مع هذا ان نتحملها بتجلد ، لا ان نفر منها . هذا الصراع بين الموت والحياة والياس والامل ، هو ما نجده في كتابات كامو . وقد عبر عن هذا التناقض الازدواجي خير تعبير في كتابه « الانسان المتمرد »

ولما هزمت فرنسا امام قوات النازية ، عمل في الخفاء محررا في جريدة « كومبا » لسان حال حركة المقاومة السرية ضد القوات المحتلة ، وكتب في هذه الفترة الحرجة الكثير ، فما جلت قوات الاحتلال الالماني عن فرنسا ، وانتهت الحرب ، حتى كان اسمه يتقدم اسماء كثير من معاصريه من مشاهير الكتاب .

وبعد انتهاء الحرب ، وجلاء القوات النازية عن فرنسا ، اقترن اسمه باسم « جان بول سارتر » ، فقد تصادقا وكانا المفكرين اللذين حددا للفكر الفرنسي خط سيره ، بعد ارهاصات الاحتلال الالماني . وعمل كامو مع سارتر و « سيمون دي بوفوار » ، بعد تحرير فرنسا ، على الاستمرار في اصدار جريدة « كومبا » اليسارية . وبعد ثلاث سنوات ، هجر اليسار والسياسة ، ولم ينس له اليساريون هذا العمل ، واعتبروه خيانة منه . وقد برر كامو هجره للسياسة بقوله : « ان السياسة تقود الى العنف والثورة ، والثورة تؤدي دائما الى الطغيان » ، وما يريده هو ان يكون هناك تمرد على الظلم على الا يقود الى ظلم مثله .

لقد خيل لكامو حينا انه قد يكون في اليسار انقاذ لهذا الانسان ، ولهذا انضم لهذه الحركة ، ولكنه لم يلبث ان انفصل عنها فهاجمه « سارتر » ، ولم ينل من انضمامه لهذه الحركة غير اكتسابه لعداوة صديق . وهنا تبدت الحقيقة لعيني كامو ، فهو كاتب اولا واخرا ، وهو وان ساهم في الشؤون السياسية احيانا ، الا انه يصعب عليه ان يقولب نفسه ضمن اطار عقائدي .

لقد خلف كامو السياسة وراءه وتفرغ للادب ، وفي عام ١٩٤٧ صدرت له قصة « الطاعون » وهي اول قصة جلبت له شهرة عالمية . والقصة في معناها الظاهري قصة طبيب في مدينة وهران وقد اصابها الطاعون عام١٩٤٠ ، ولكنها في معناها البعيد ترمز بالطاعون الى مأساة الانسان الحديث بتصويره ذلك العبء من الظلم والالم والموت الذي يثقل كاهله .

وعاد كامو يكتب للمسرح ، فمثلت له في باريس مسرحية « العادلون » في ١٥ ديسمبر ١٩٤٩ . والعادلون عند كامو هم اولئك الذين لا يرضون بعالم اصبحت فيه الحرية امتيازا لشعب دون آخر ، لان الحرية في رأيه من حق كل فرد في كل شعب ، « والحرية نفسها تصبح سجنا ما دام على وجه الارض انسان واحد مستعبد » . وقد نجحت هذه المسرحية نجاحا ملحوظا ، ولعل السبب في هذا النجاح يعود الى تمكن كامو من فن المسرح ، والى اسلوبه المتميز باللفظة الموحية ، والمعاني الواضحة ، هذا بالاضافة الى ان شخصياته التي تعاني من الصراع الداخلي والقلق ، هي شخصيات يمكن تجسيمها على المسرح .

وبعد « العادلون » صدر لكامو ما يمكن ان يعد اخلد انتاج له ، وهو « الانسان المتمرد » (١٩٥٢) وصدرت له قصة « السقوط » بعد ذلك (١٩٥٦) ، وهي قصة لم يستحسنها حتى المعجبون به ، ثم لتتلوها بعد ذلك مجموعة اقاصيص .

لقد رفع مجموع هذا الانتاج كامو الى مرتبة الادباء العالميين المرموقين ، فمنح من اجل هذا جائزة نوبل للاداب عام ١٩٥٧ ، وكان من قبل ١٩٤٧ قد منح جائزة النقاد الفرنسيين على كتابه « الطاعون »

وقد اختار كامو بنفسه ، قبل وفاته ، مجموعة مقالات ومحاضرات، كتبت والقيت بين عامي ١٩٤٢ و ١٩٥٨ ، وقد نشرت هذه بعد وفاته،

ولم يضف اليها الناشر سوى الكلمة التي القاها كامو عند تسلمه جائزة نوبل للاداب . وقد صدرت هذه في ترجمتها الانجليزية في لندن في عام ١٩٦١ . وفي عام ١٩٦٢ ، اختيرت احسن عشرة كتب صدرت باللغة الانجليزية في عام ١٩٦١ ، فكانهذا احدها • وهي تبدأ بمقالاته الشهيرة « رسائل الى صديق الماني » ، ثم مقالات اهمها : تحرير باريس ، والطغيان ، ودفاع عن الحرية ، واسبانيا ، والجزائر ، وهنغاريا ، وعقوبة الاعدام ، واهم ما تتسم به هذه المقالات هو نفاذ البصيرة ، والصدق ، ومحاولة ايجاد حلول بناءة للمشاكل التي يتناولها .

وقد نشرت « رسائل الى صدق الماني » لاول مرة بين عامي ١٩٤٣ و ١٩٤٤ ، وذلك ردا على قول صديق الماني قبل الحرب الثانية : « ان عظمة بلادي يهون في سبيلها اي ثمن . وكل وسيلة تؤدي الى هذه العظمة محبوبة عندي مستساغة » . وخلاصة رد كامو عليه : ان كلمة « بلاد » و « وطن » في مثل هذه الحالة يصبح معناها العصبية العمياء المتعطشة للسفك والتدمير ، والانسان الشريف لا يمكن ان يرضى ان يكون مواطنا في مثل هذا الوطن ، ومن اجل هذا كان كامو يكره الفاشية .

وفي مقالة « الملحد والمسيحيون » يهاجم رجال الدين الذين يباركون حكم الاعدام فيقول : « عندما يبارك الاسقف حكم الاعدام ، يكون في رأيي قد خرج عن دينه ، وحتى عن انسانيته » . ومقاله « آراء فيعقوبة الاعدام » من خير ما كتب كامو من مقالات ، فهو يبدأ بوصف ما يعانيه المحكوم عليه قبل تنفيذ الحكم ، ثم يتهم المجتمع بانه هو المسؤول عن كون المجرم قد اجرم . وهذا المقال هو اطول مقال في الكتاب ، وهو مشحون بالعاطفة والفكر ، ولعله خير ما كتب حول هذا الموضوع ، فهو يتفوق فيه على ما كتبه « آرثر كويستلر » في هذا .

ومقال « آراء في حكم الاعدام » يذكرنا بقصة « الغريب » : ففي كليهما نجد شبح الانسان المحكوم عليه بالاعدام يحتل تفكيره . وكامو يجد فرقا كبيرا بين الانتحار والحكم بالاعدام ، فيقول في قصته « اسطورة سيزيف » ان الانتحار مناقض للاعدام ، ففي الانتحار يتخلى الانسان عن حريته ، وفي الاعدام يسلب هذا الانسان حريته ، وليس هناك اشد تعلقا بالحياة من الانسان المحكوم عليه بالاعدام . ونحن جميعا في الواقع محكوم علينا بالموت ، ونحن في صراع معه ، ولهذا فان علينا جميعا ان نتكاتف لنقف في وجهه ، وهذا هو اول واهم مجالات التكاتف الانساني ، ومن هنا وجب علينا مقاومة الانتحار والاعدام .

ومقالاته او محاضراته عن القضية الجزائرية ، تحتل ٣٢ صفحة من الكتاب ، وهو يتهم فرنسا فيقول : « ان نفوس الفرنسيين مليئة بالحقد ، وهو حقد اسود ارفض ان اشارك فيه .. لقد كلفتنا هذه القضية كثيرا ، وما زالت تكلفنا » ولكنه مع هذا تنكب عن ان يخطو خطوة ايجابية لحل هذه القضية ، فقد ترك شؤون السياسة للساسة .

لقد قضى كامو حياته جاهدا لتوضيحآرائه والدعوة اليها بحرارة : كاتبا قصصيا ، ومسرحيا ، وفيلسوفا ، حتى وافاه القدر المحتوم عند جذع شجرة حمقاء ، وهو في سن السادسة والاربعين ، ولم يكن قد عبر بعد عن مواهبه الفائقة تعبيرا كاملا ، تاركا وراءه زوجة محزونة ، وطفلين . وقد رثاه صديقه اللدود « سارتر » فكان مما قاله فيه : انه احد اخلاقيي العالم الكبار المؤمنين بالانسان . وهكذا كان .

٢ ـ الدكتور بندلي صليبا الجوزي

في النصف الاول من القرن العشرين لمع نجم الدكتور بندلي صليبا الجوزي كعلم من أعلام الاستشراق واللغات السامية في روسيا ، واشتهر كمؤرخ عربي كبير ، وباحث لغوي تولى كرسي العربية في جامعة قازان حتى نهاية الحرب العالمية الاولى . وانتقل بعدها الى جامعة باكو (في مدينة باكو الواقعة على بحر قزوين) وظل يدرس العربية فيها حتى وافته المنية هناك ، ويصفه المستشرقون بانه كان مرجعا خصبا من مراجعهم وعرف عندهم باسم Pandali

ولد الجوزي في مدينة « بيت المقدس » وتلقى علومه في كلية « دير المصلبة » الارثوذكسية بالقدس ، ومنها قصد مدرسة « كفتين » الارثوذكسية (من أعمال طرابلس الشام) وهي في أوج ازدهارها وشهرتها وتمكن من اللغة العربية وهو في السابعة عشرة من عمره ثم سافر الى روسيا عام ١٩٠٤ والتحق بجامعة « قازان » واحرز منها درجة ماجستير . وعلم في السمنار الروحي وفي الاكاديمية الروحية بمدينة قازان ، وتزوج آنسة روسية من أسرة فيستو غرادوف . وبعد زوال الحكم القيصري انتقل الى مدينة باكو وعين استاذا للادب العربي في جامعتها .

ولم ينس الدكتور الجوزي مسقط رأسه ، فقد زاره ثلاث مرات هي : الاولى : في عام ١٩٠٨ مع لفيف من طلابه الروس الذين حملهم ايمانهم على حج الاماكن المقدسة . الثانية : في عام ١٩٢٧ ، وخلال هذه الزيارة القى محاضرات قيمة في التاريخ والحركات الفكرية عند العرب والمسلمين ، وفي تاريخ التمدن عند العرب . الثالثة : في عام ١٩٣٠ وقد القى الدكتور الجوزي خلالها سلسلة من المحاضرات الاجتماعية والفلسفية في نوادي وجمعيات امهات المدن الفلسطينية ، كما زار القاهرة مع صديقيه المرحومين خليل السكاكيني وعادل جبر فاحتفى بهم اهل الفكر بوادي النيل .

وكتب الجوزي في كبريات المجلات العربية كالمقتطف والهلال والنفائس العصرية وكان يحسن ثماني لغات حية هي : العربية والسريانية والعبرية واليونانية والفرنسية والالمانية والانكليزية والروسية .

من آثاره القلمية : ترك الجوزي طائفة من المؤلفات العربية والروسية عرفنا منها : (١) تاج العروس في معرفة لغة الروس (جزاءن) (٢) الامومة عند العرب (مترجم عن ديكلن الهولندي) . (٣) مبادىء اللغة الروسية لاولاد العرب (جزءان) . (٤) الاسلام والتمدن . (٥) الطاعون واعراضه والوقاية منه . (٦) رحلة البطريرك مكاريوس ابن الزعيم الى بلاد الكرج . (٧) علم الاصول عند الاسلام . (٨) الحركات الفكرية في الاسلام (طبع عام ١٩٢٨ في بيت المقدس ونال بكتابه هذا الدكتوراه من جامعة موسكو) . (٩) أصل الكتابة عند العرب . (١٠) أصل سكان سورية وفلسطين المسيحيين . (١١) جبل لبنان : تاريخه وحالته الحاضرة . (١٢) امراء غسان (الفه المستشرق تيودور نولدكه وترجمه الجوزي الى العربية بالاشتراك مع الدكتور قسطنطين زريق ونشرته أكاديمية العلوم البروتستانتية في برلين وطبع في بيروت عام ١٩٣٧) . (١٣) تاريخ أذربيجان : لابن الاثير طبع عام ١٩٤٠. (١٤) العلاقات الانجلو مصرية طبع عام ١٩٣٠ . (١٥) المصطلحات العلمية عند العرب المعاصرين طبع عام ١٩٣٠. (١٦) القاموس الروسي العربي (جزءان) . (١٧) تاريخ كنيسة اورشليم .

ويقدر اصدقاء هذا العالم العربي مؤلفاته باللغة الروسية ، بين موضوع ومنقول ، بستة وعشرين مؤلفا ، وترك تسع مخطوطات بالروسية ومخطوطتين بالعربية .

٣ ـ زهدي جار الله

يشترك « زهدي » مع كونفوشيوس حكيم الصين ، وفيلسوفها القديم في قوله : « ان حب التاريخ ودراسته وفهمه من شروط الحاكم الصالح واستقرار حكمه ! » .

ولد في القدس عام ١٩١٤ وانهى دراسته الابتدائية في الكلية الرشيدية ودراسته الثانوية في الكلية العربية عام ١٩٢٩ . وانتسب الى الجامعة الاميركية في بيروت ونال عام ١٩٣٢ بكلوريوس في التاريخ ، وفي عام ١٩٤٤ حصل على بكلوريوس في تاريخ العرب من

الغروب

أنا كم أرقت لوهج الغروب ... وسحر الضياء وجدب الدروبِ
أما فيه من شاحبات الاماني ... وذوب الحنايا وعتب القلوب
ظلال ترف ، وبوح يشف ... وذكرى تولت لعهد غريب
فمنها حنيني يدوي صداه ... فأمتد فيها عنيف الدبيب

فذوب الضياء وزحف المساء ... يشد الضلوع اليك حبيبي
يذكرني بضياع العهود ... وموت الشذى وخفوت الوجيب
يذكرني بدوي الجفاف ... وعصف الرياح وصمت المجيب
وأني بدنياك بقعة ظل ... تمر بها عند كل غروب
وتجتازها سادراً لا تبالي ... الى غيرها في مداك الرحيب

دمشق

سلافة العامري

الجامعة نفسها .

وعاد « زهدي » الى فلسطين وعين استاذاً للتاريخ في ثانويات حيفا والناصرة والخليل والرملة والعامرية بيافا . وبعد حلول النكبة الفلسطينية الاولى (١٩٤٨) بارح فلسطين الى بغداد وعين استاذاً للتاريخ في « كلية الملكة عاليه » وظل يعمل فيها مدة ست سنوات (١٩٤٨ - ١٩٥٣) . وانتقل الى السعودية وعمل مترجما ثم كبير التراجمة في شركة الارامكو بالظهران (١٩٥٥ - ١٩٥٨) واختارته شركة الارامكو رئيسا لتحرير البرامج في محطة التلفزيون التي تملكها الارامكو فمستشارا لهذه المحطة من (١٩٥٨ - ١٩٦١) . وفي عام ١٩٦١ قدم بيروت وعين مديراً لمؤسسة الشرق الاوسط للتحرير والترجمة والنشر .

من آثاره القلمية : صنف الاستاذ جارالله كتبا مفيدة توضح ميوله واتجاهاته الادبية ، ولو انه كرس قلمه للتاليف لكان للمكتبة العربية حصيلة غزيرة من هذا القلم السخي . ودونك اسماء ما وقفنا عليه من آثاره القلمية :

(١) المعتزلة طبع عام ١٩٤٨ . (٢) صرخة الروح طبع عام ١٩٥٨ (مجموعة مقالات ومحاضرات وقطع ادبية) . (٣) الشخصية الاميركية (مترجم من الانكليزية) . ومن كتبه المخطوطة : (١) الفيلسوف السهروردي . (٢) علم النفس في الادب العربي القديم . (٣) الاخطاء الكتابية . (٤) التصوف الاسلامي .

نموذج من نثره : « رحماك يا نفسي ! لقد علمتني الطموح ، وعودتني الا اقنع الا بكل عظيم ، وصورت لي هذا العالم جحيما ابديا وظلاما سرمديا ، وقلت : انظر الى الاعلى .. هناك .. حيث النور والحرية ! ..

وانطلقت كالسهم ، وأنا اتبعك ، الى العالم الذي تهوين ... ذلك العالم الذي زينته بآمالك ، ووشيته باحلامك ، واعرته حلة زاهية من نسيج خيالك .. لكنك في منتصف الطريق خذلتني ، وخليتني بين السماء والارض معلقا تائها ، لا بالعالم الذي كنت فيه احتفظت ، ولا الى العالم الذي تنشدين وصلت . رحماك يا نفسي !

لقد سقيتني من آمالك كاسا سرت في جسمي حمياها ، فاختلطت بلحمي وامتزجت بدمي ، وعرتني نشوة عميقة اطربتني وطارت بي على اجنحة الخيال ، وانت الى جانبي ، فادخلتني الجنة .. فخيل لي انني أختال في يوم اغر ضاحك بين الآس والسوسن ، ورأيتني تحت دوحة مزهرة عطرة ارقب الحور في الغدران يسرحن الضفائر المسترسلة ، وينشرن الغدائر السمراء في الماء اللجين ناعمات مغنيات، وأرمق الظباء وهي تخطر على ضفاف الجداول بين الحدائق السندسية آمنة مطمئنة ، وأرنو الى البلابل وهي تطفر من غصن الى غصن ، الى آخر شادية مترنحة تصدح بانغام الحب ، وتسبح باسم الرب .. وبينا انا ماخوذ بتلك المناظر الخلابة اذا بك تهزينني وتقولين : هذا هو الفردوس الذي وعد به المتقون الابرار الذين قدموا في حياتهم صالح الاعمال .. فجعلت أجد وأكد وأعد له العدة حتى حرمت في سبيل ذلك لذة الحياة ومتعتها ، وحتى صرت أقوم باعمال وحركات حسنتها لي وزعمت انها تطهر الجسد من الادران ، وتخلصه من سلطان المادة .

لقد صبرت صبر أيوب ، غير اني صدفت عن الطريق التي قدتني اليها ، وخلفتني وقد عقلت الحيرة يدي وعصر الاسى قلبي ، لاني في دنياي ما نعمت ، ولا من جنتك طعمت !

رحماك يا نفسي !

أنت أرضعتني لبان العلم ، وغذيتني بالحكمة والمعرفة . انت نفضت عني غبار العصور الماضية ، ورفعت عن عيني غشاوة جهل القرون الخالية . لقد طالما سمعتك تهتفين في اعماقي : اداب على الدرس والعمل .. سر نحو المجد بخطى ثابتة وثابة فانه لا يلقى العلاء الا من سما لها ، وانت تشجعينني وتمهدين السبيل امامي ، في الادغال بقلب غير هياب ، حتى اذا اتسق لي ما حاولت ، وتحقق ما أملت ، وصرت قادرا على ادراك الاشياء والمفاضلة بين الامور ، ابتعدت عني قبل ان اصلح فسادها ، أو ابيض سوادها . لقد تركتني مضطرب الفكر ، معذب الضمير ، لاني في جهلي ما بقيت ولا بعلمي أفدت !

رحماك يا نفسي !

أنت اخرجتني من بيتي الصغير المتواضع ، وأسكنتني قصرا منيفا صاخبا شيدته فوق طبقات الهواء على اساس من آمالك ، ودعائم من أحلامك ، ثم ما لبثت ان هبت العاصفة فقوضت أركانه ، وهدمت بنيانه ، فاصبحت شريدا على وجهي هائما ، لاني ببيتي العتيق ما قنعت ، ولا من قصرك الشاهق انتفعت !

رحماك يا نفسي !

فقد اخترتك للصحبة ، وادخرتك للنكبة ، وكنت أرى فيك اكبر عون وخير نصير ، فما بالك تتنكرين وتنفرين مني ؟ انا الذي لم احملك وزرا ، ولم اكلفك نكرا ، ان تريدي قهري وتتعمدي قسري !

رحماك يا نفسي ... رحماك ! » .

عمان - الاردن

البدوي الملثم

الشعر النسائي

بقلم عيسى ميخائيل سابا

* * *

قد يزعم غير واحد، ان للشعر النسائي طابعا خاصا يترجم عن انوثته ، فقد يكون الزعم صحيحا الى حد ما ، الا ان المطلع على شعرهن يعلم الا فرق بين ما نظمته الانثى وما ينظمه اخوها الرجل ، فكلاهما واحد من حيث الاسلوب والسرد وانتخاب الالفاظ الا ان هناك ميزة غير ظاهرة في الشعر النسائي . فاذا ما تغزلت المرأة ، رأيت أو احسست ان روحا مكبوتا في صدرها ، وان شئت فقل نفسا محصوراً ، تقدر ان تصعده بحرية او تفصح به كالرجل ، فقد تأخذها روعة الحياء ، فتشير الى ما تريد اشارة خفية ، قد تتصيد المعنى كما في قول اسماء المرية ، وهي من شواعر الجاهلية تذكرت حبيبا لها في نجد ، فذكرته على التلميح ، ومن خبرها ، انها تزوجت رجلا من تهامة فقالت له : ما فعلت ريح من نجد كانت تأتينا يقال لها الصبا ، ما رأيتها هنا ، فقال : يحجزها عنا هذان الجبلان ، فقالت :

ايا جبلي نعمان بالله خليا ... نسيم الصبا يخلص الي نسيمها
فان الصبا ريح اذا ما تنفست ... على قلب محزون تجلت همومها

ولا احدثك عن ريح الصبا وما ارادت بها فالبيت الآتي وما بعده كفيل بالانباء عما يجول في جمع قلبها :

اجد بردها او تشف مني حرارة ... على كبد لم يبق الا صميمها (١)
ايا جبلي وادي عريعرة التي ... نات عن نوى قوم وحم قدومها
الا خليا مجرى الجنوب لعله ... يداوي فؤادي من جواه نسيمها

وهذه عشرمة المحاربية ، جلست تستعرض ماضيها وقد اصبحت عجوزا حيزبونا ، يوم كانت ترفل بحلة من الشباب خضراء ، قد ذاقت حلو الحياة على انواعها على حد قولها :

جريت مع العشاق في حلبة الهوى ... ففقتهم سبقا وجئت على رسلي
فما لبس العشاق من حلل الهوى ... ولا خلعوا الا الثياب التي أبلي
ولا شربوا كاسا من الحب مرة ... ولا حلوة الا شرابهم فضلي

ويؤخذ من اقوالهن جميعا ، كما بينت في كتابي « غزل النساء (٢) ان الغزل في الجاهلية عند المرأة لم يكن صورة منتزعة مما تقع عليه العين في عالم الطبيعة ، وانما كان احساسا نفسيا يبعثنه عن شهوة ملحة في القلب وعن رغبة في خلوة مع الحبيب ، فما هو الا شعر يظهر متطلبات النفس وما تتمنى المرأة من الرجل وتشتهي ، واليك قول سعدى الاسدية :

حبيبي لا تعجل لتفهم حجتي ... كفاني ما بي من بلاء ومن جهد
ومن عبرات تعتريني وزفرة ... تكاد لها نفسي تسيل من الوجد
غلبت على نفسي جهارا ولم أطق ... خلافا على اهلي بهزل ولا جد
ولن يمنعوني ان اموت بزعمهم ... غدا خوف هذا العارفي جدث وحدي
فلا تنس ان تاتي هناك فتلتمس ... مكاني فنشكو ما تحملت من جهد

فلندع شواعر الجاهلية وصدر الاسلام ، وما بعدهما وناة الى عصرنا الحاضر فنسمع احداهن تقول :

الزهر فتح مرة ... والغصن ازهر ، ما عقد
والقلب ريش بسهمه ... اواه منه ، قد جمد
كيف السلو وها أنا ... أبكي ، وما لي من أحد

ففي هذه الابيات اشارة خفية الى ما يجول في خاطر الشاعرة ، على ان ذلك لا يقدح بشاعريتها ، وهي التي اتت بالكناية تعلن ما استتر من شعورها نحو الحبيب واذا كان الشعر من الشعور ، فللانثى شعور يفوق شعور الرجل كما اثبت ذلك بعض علماء النفس ، فهي تحس وتشتهي ، وترغب ، ولا لوم عليها فيما تقول وهو امر طبعي معلوم ، لا يقدر ان ينكره منكر ، الا اذا وضع يده على عينيه نهارا وقال : الشمس غير طالعة .

ويتميز شعر الانثى بقوة الخيال وصدق العاطفة وحسن الاشارة وهذه شاعرة اللاذقية « فتاة غسان » تقول :

واذكروا من مضت شهيدة عشق ... ما حوت في برودها غير طهر
لم تكن بالهوى تريد نوالا ... هكذا الحب والغرام العذري

قد تحس وانت تقرأ هذين البيتين ، ان فيهما حرقة وفيهما لوعة ، وفيهما منى وما اكثرها عند المرأة ، كما هي عند الرجل .

وقد ترى في شعرهن حكمة قد استقينها من التجارب التي مررن بها ، وحفظن ذكرياتها ، فجرت على اسلات لسانهن سحرا حلالا وقولا مأثورا ، والحكمة بنت الاختبار اكثر منها بنت التفكير والتأمل .

والشعر على علو شرفه ، لا يستقيم الا للنفوس الحساسة والارواح المجنحة ، والقلوب العامرة بالحب والصدق والاخلاص ، فهو باعث الراحة والطمأنينة في الافئدة ومزيل البؤس والكرب، والمؤنس بالوحدة والمطرب في مجالس السمر ، ومحيي موات ما كتبته الايام في الصدور اجيالا ، والناهض بالهمم الى الحياة المثلى فلا عجب ان مالت اليه الانثى الموهوبة ، وبعثت نفثاتها الما وجوى ، او فرحا ومسرة ، او زهرات حب ندية تكنى به عن مستور في الصدر ، فلا تعلنه ، وتتشوق اليه لا تظهره ، تقية وحياء ، وكل محجوب محبوب ، وكل معروض مبذول ، وما احسن الرمز والاشارة واختتم بقول زينب فواز :

كانني ميت لا روح في بدني ... اذ لا صديق اليه مشتكى حزني
لا الراح يوما ولا الاوتار تنعشني ... أصخرة انا ما لي لا تحركني
مجالس الانس والاقداح والغيد

عيسى ميخائيل سابا

---

(١) أجد مجزومة لانها جواب اذا ، واذا لا تجزم الا بالشعر فقط كقول الشاعر وقد استشهد به النحاة :
واستغن ما اغناك ربك بالغنى ... واذا تصبك خصاصة فتحمل

(٢) غزل النساء نشر دار العلم للملايين بيروت ص ٢١ طبع سنة ١٩٥٣

تأثير القصة العربية في القصص الاوربي

بقلم الدكتور محمد رجب البيومي

* * *

يحلو لبعض الكاتبين ان يعتركوا في غير معترك اذ يلوكون الاحاديث المعادة حول مكانة القصة في الادب العربي القديم ما بين معترف ومنكر ، وكان الظن ان امتداد الزمن معهذه المناقشات يصل بها الى رأي حاسم، ولكن شهوة الجدل تجعل منها معركة دائمة ، والحق سافر وضيء ، فنحن نعرف بداهة ان حب القصة يكاد يكون غريزة في النفس البشرية . ففي كل مجتمع بدائي او متقدم يتقابل الناس فيحكون ويروون ، واخبار العرب القدامى تروي كثيرا مما كانوا يسمرون به من اقاصيص فيها المثل والخرافة والقصة، حتى عرف بينهم قصاصون تروى عنهم هذه الانواع ، وامتلأت بها الكتب القديمة ، فاذا كانت القصة في معناها الساذج امرا فطريا يختلط بالنفس ، وتهوي اليه الافئدة ، ففيم النقاش اذن في غير مجال .

وقد تعرضنا في موضوع « الملاحم » المنشور بالاديب منذ عامين الى ما يقال عن قصور الذهن السامي عن التفكير الكلي ، فما يقدر ان ينتج ملحمة او قصة ، وعفينا عليه بما نملك من براهين ، وسنتعرض الان الى ما يقال من ان السبب في ضعف القصة العربية الاولى عند قوم ، وفقدانها نهائيا عند قوم آخرين هو الصحراء المجدبة التي عاش فيها اجدادنا العرب ، حيث لا تنوع في المشاهد ولا افتتان في المناظر ، بل رمال ممتدة ، ورياح هائجة ، وشمس محرقة ، فلا غابات تشق الفضاء بأشجارها الفارعة ، ولا كهوف تتحدث عن شعوب كانت تأوي اليها ، ولا قمم يكسوها الثلج ، بل كثبان وتلال وجبال موحشة جرداء مما يقصر بالخيال عن التحليق ، وهذا اغراق واهم لان الصحراء لم تفقد سحرها وقد ملأت خيال العرب بما نجد آثاره في قصص الجاهلية واساطيرها ذات الابداع .

وسبيلنا الآن ان نتحدث عن دور القصة العربية في انماء هذا الفن بالادب الاوروبي ، حيث وفدت اليه من جهات مختلفة ، اكبر جهة منها الاندلس العربية ، وقد كان من تأثيرها الملموس انها في نطاق القصة غيرت كثيرا من طابع الملحمة في ذكر الخوارق والتحليق مع الخيال ، وجذبت الرواية الاوروبية الى نطاق واقعي يتحدث فيه القصاص عن المجتمع الراهن بشخصياته العادية ، فمضت تعالج المألوف المشهود ، وكانت روعتها ان تسرد على الناس ما يشاهدون ويلمسون في اطار فني محكم ، وصار البطل انسانا عاديا يتألم وييأس ويأمل ، ويفرح ويحزن ، وليس ربا من الارباب يحطم منطق الحياة ليأتي بالمعجزات !! لقد تم ذلك كله على يد لون من الوان القصة العربية وهو المقامة ، فاذا اضفنا اليه اثر الالوان الاخرى في نهضة هذا الفن حفظ الباحثون للعرب مكانهم الادبي في مضمار حي يخيل الى الناس انهم عالة على غيرهم فيه ، والحقيقة التي يشهد بها التاريخ انهم امدوا القصة الاوروبية بمقومات رائعة ، ثم اتيح لهم ان يغفوا اغفاءة طويلة تقدمت اثناءها الرواية الغربية تقدما واثبا ، حتى استيقظوا من سباتهم ففتحوا عيونهم على نمط جديد من الفن ، فانطلقوا في عصرنا الحديث يحاكونه ويستلهمونه ولا يدرون انهم شاركوا في بنائه حين كان لبنات متواضعة لا ترتفع قليلا عن مستوى الارض ، ونحن لا ننكر الحق على اصحابه حين نعترف الان لهذا الفن بالنضوج والاكتمال في اوروبا ، ولكننا نطالب مع ذلك ان ينظر الى اثرنا البارز في نشأته ، وهو اثر تنطق به الحقائق دون افتعال !!

يقول الاستاذ عباس محمود العقاد في كتابه اثر العرب في الحضارة الاوروبية ص ٦١ « والذي نعتقده على اية حال ان العقل يأبى كل الاباء ان قيام الادب العربي في الاندلس يذهب من صفحة التاريخ الاوروبي بغير اثر مباشر على الاذواق والافكار والموضوعات والدواعي النفسية والاساليب اللغوية التي تستمد منها الآداب .. وقد اقترنت بموضوعات الادب العربي اسماء طائفة من عباقرة الشعر في اوروبا بأسرها خلال القرن الرابع عشر وما بعده ، وثبتت الصلة بينهم وبين الثقافة العربية على وجه لا يقبل التشكيك او لا يسمح بالانكار ونخص منهم بالذكر بوكاشيو ودانتي وبترارك الايطاليين وشوسر الانجليزي وسرفانتيز الاسبائي واليهم يرجع الاثر البارز في تجديد الآداب القديمة بتلك البلاد » وسنتتبع الان خطوات هذا الاثر المباشر في مضمار القصة لنرى كيف اشتد جسمها الواهن بدم فائر منحه حرارة الفتاء ونشاط الشباب .

كانت مجموعة « ادب العلماء » اول كتاب يضم بين دفتيه قصصا عربية ذات طابع اسلامي ، وقد الفه يهودي تنصر سنة ١١٠٦ وشهد تعميده الفونسو الاول ملك ارغوان وقد جمع ثلاثين اقصوصة عربية او شرقية جاءت عن طريق الترجمة العربية فترجمها الى اللاتينية، وقد اعترف صراحة بأصلها العربي ، لانه يعلم عن يقين انجذاب القراء في الامم اللاتينية الى نوع جديد من الفن يتشوقون اليه ، ويعرفون ما لاصحابه من التفوق الفكري ، والنضوج الحضاري ، والجو العربي الاسلامي — مع ان المؤلف راهب نصراني وكان يهوديا من قبل — يملأ مجموعة اد ب العلماء ، وهي بعد تتجه وجهة المواعظ

والحكم ، ففيها ذكر للقمان الحكيم وقصص عن تاجرين احدهما مصري والاخر بغدادي يذهبان الى الحج في مكة ، وقصة عن الوفاء والشرف بطلها اسباني مسلم يتوجه الى بيت الله الحرام ! وما جاء في المجموعة عن سقراط وارسطو ليس مما عرفه الكاتب عن أدب اليونان ولكنه مما ترجمته العربية لفلاسفة الاغريق في كتبها الذائعة وقد ترجم الكتاب – كما يقول الدكتور لطفي عبد البديع في كتابه الاسلام في اسبانيا ص ١٢٨ – « الى اللغات الاوروبية ونظم شعراً بالفرنسية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر مرتين « كما نظم كتاب كليلة ودمنة في العربية من قبل » والمؤلفون القصصيون في اوروبا عالة عليه فيما اوردوا من قصص حاكوه في بعضها واقتبسوا منه في البعض الاخر ، مثل دون خوان مانويل والاربثر ستادي هيتا وبوكاشيو وشوسر وغيرهم » .

والطريف انهذا المؤلف الذي يجمع كتابه القصصي من ثقافة العرب يسمي نفسه خادم المسيح ويقول ان قصص الكتاب توقف على ما في العقيدة الكاثوليكية من كمال مع اعترافه بالاصول العربية في مقدمة الكتاب اعترافا لا تنقصه الادلة ومن يقرأ قصة فرسان مصر وبغداد يجد نفسه في كتاب الف ليلة وليلة مما يدل على وجود اجزاء منه بالاندلس اذ ذاك !!

وقد اشتهرت في الادب الغربي قصة ابي القاسم ونيكلوت وقد الفها الشاعر الفرنسي اولدا نينف في القرن الثاني عشر من الميلاد وهي تشبه الى حد كبير قصة روميو وجولييت لشكسبير حتى جزم كثير من النقاد برجوع الشاعر الانكليزي الكبير الى الرواية الفرنسية ، والقصة الغرامية عربية منقولة عن الاندلس فأبو القاسم بطل القصة كان احد حكام قرطبة في القرن الحادي عشر ، وسياق القصة في تركيبها الادبي نثرا يروي الوقائع وشعرا ينفس عن عواطف البطل يذكر ايضا بألف ليلة وليلة ، وكان المظنون ان هذا الكتاب تسرب الى اوروبا من الشرق اثناء الحروب الصليبية بل جزم بعض الذين تحدثوا عن بوكاشيو بذلك جزما لم يترك معه احتمالا لغيره ، ولكن امتلاء الادب الاسباني بمتشابهات حوادثه يدل دلالة قاطعة ان اجزاء كبيرة منه رحلت الى الاندلس العربية قبل ان تفد مع العائدين من الغزوات الصليبية بأمد كبير ! والى هذه الاجزاء الاندلسية وحدها يرجع كل ما جاء في مدونة الفونسو الحكيم مقتبسا من الف ليلة وليلة مما كان ملهما للكاتب الاسباني لب دي فيجا المسرحي الشهير وقد عقب على ذلك الاستاذ الدكتور احمد لطفي عبد البديع بقوله ص ١٣٦ من كتابه السابق :

« ومما يدل على ان الكتاب كان شائعا بين الناس في آخرة العهود الاسلامية باسبانيا ان بعض قصصه قد رواها الموريسكيون باللغة الاعجمية التي كانوا يكتبون بها كقصة قصر الذهب وما اليها ، هذا الى ان الباحثين تعقبوا طائفة من موضوعات قصص شهرزاد فوجدوا لها صدى في قصص اسبانية ، ومن ذلك المعجزة الثالثة والعشرون لبريثو وفيها يقذف المدين في البحر اموالا تصل الى الدائن وقصة ملك اليمن وابنائه الثلاثة التي تنسب فيها البطولة الى من ليس بطلا تشبه قصة الوعل ذي القدم البيضاء وقصة الغيور العجوز عند سرفانتيز لها أصل في قصة القاضي وابنة التاجر » .

وقد افاض الدكتور في نحو ذلك من ص ١٣٥ – ١٣٨ من كتابه المشار اليه . هذا بعض اثر الف ليلة وليلة في الادب الاوروبي ، اما اثر المقامات فلا بد ان نقف عنده متمهلين !

كان اسلوب المقامة المسجوع ورسفه في اغلال الصنعة البديعية مما باعد بينها وبين كثير من الادباء حتى خفي عليهم مغزاها الاجتماعي ووصفها الابداعي لعصر مضطرب متناقض من عصور التاريخ ! فوجدنا من اعلام الكاتبين من يصمها بما لا تستحق – فهي في رأي الاستاذ سلامة موسى وفي رأي الدكتور احمد امين ، ادب مكر واحتيال يصطنع بطله جميع المهن والحرف ليسلب اموال الناس ، هو مرة قراد يسير بقرده ليجمع الناس في حلقات فيضحكهم ويأخذ من اكياسهم ، وهو مرة واعظ محترف يلج المساجد لتدمع عينه ويرتل ايات الذكر ورقائق الوعظ وسير الصحابة ويتحدث عن مشاهد القيامة واهوال الجحيم لتعطف عليه القلوب فيرجع ملء الوطاب بالدوانق والدراهم ، وهو مرة ثالثة ينحط الى دركات وبيئة فيسرق اكفان الموت ويحمل خادمه ليوقع في حبه المتهورين ويتخذ الفصاحة وسيلة هذا الكسب الذميم !! والحكم على المقامات من همذانية وحريرية بالانحطاط الخلقي والاسفاف النفسي خروج بالحق عن طريقه القويم ، لان من البداءة ان مؤلف الرواية حين يجعل ابطاله من نمط شاذ لا يصور نفسه في شيء ولكنه يرسم احدى الصور لوقائع مجتمعه ، والوان مصره وهواجس معاصريه ، فالفرض الحقيقي من نظم المقامات هو تصوير جانب من جوانب الحياة الاجتماعية في القرن الرابع وما يليه ولذلك تعرض البديع ومتبعوه لوصف ما يرون من مثالب تقع عليها العيون ورسم ما يتفنن فيه المشعوذون والدجالون من انواع المكيدة وضروب الاحتيال كما يكشف الاعيب الماكرين من ذوي الصلاح الكاذب والنفاق المسموم مما لا نزال نراه في عصرنا الراهن ، واذا كان تصوير المجتمع من اهم خصائص الادب الواقعي في عصور الحضارة والتقدم فان المقامات قد انتحت هذا المنحى فعرضت صورا صادقة لما كانت تموج به الدنيا من خديعة واحتيال.

صحيح ان البطل الواحد كأبي زيد السروجي عند الحريري مثلا لا يمكنه ان يتقمص جميع الشخصيات في كل المقامات ، فهو تارة واعظ وتارة مهرج وتارة استاذ

مدرسة وطورا طبيب مرضى مما يتعذر فنيا قبوله، وهو نقد وجه الى الحريري والهمذاني ، ولكن الناقدين يغفلون شيئا هاما هو ان ابا زيد ليس مؤلفا وانما هو كممثل فقط ،والممثل يأخذ عن المؤلف ويلبس لكل حالة لبوسها باتقان فهو في مسرحية طبيب وفي اخرى مدرس وفي ثالثة محام ! اما كاتب القصة فله من سعة افقه ما يستطيع به تصوير الاشخاص المتناقضة كما يشاء ! وهل يعاب على شكسبير مثلا انه وصف الناس في مسرحياته او يحسب له ذلك في مجال التفوق والابداع !! واذا كانت هذه المقامات الرائعة قد وجدت من يزدريها من كتاب العرب وادبائهم فانها وجدت فيلسوفا فرنسيا ذائع الصيت كأرنست رينان يقول عنها في اعجاب ، نقلا عن ترجمة الاستاذ الكبير صديق شيبوب « بالبصير » ٢ – ١٢ – ٦١ :

« يجب علينا ان نتأمل كيف قاد الحريري شحاذه في خمسين موقفا مختلفا بقوة اختراع عجيبة ودقة تأمل في الاخلاق والعادات لنعلم المهارة والغرابة التي تنطوي عليها فكرة المقامات ، ارادوا ان يضعوا للقرن التاسع عشر مهزلة بشرية « يشير رينان الى مجموعة بلزاك المسماة بهذا الاسم » فلم يعرفوا كيف يجلونها في قالب مقبول في حين حقق الحريري هذه الفكرة للمجتمع الاسلامي في القرن الثاني عشر اما بلزاك فقد نقصته شخصية ابي زيد التي لا تكاد تلمسها حتى تفلت ، والتي تمثل في تهكم ادوارا مختلفة فلا يتبين الحارث بن همام من خلال هذا كله الا زي ممثل هزلي عجيب » .

انتقلت هذه المقامات الى الاندلس واحتفى بها ادباؤها شرحا ونقدا وتعليقا ، ومنهم من انشأ على غرارها مقامات مشهورة كمقامة ابي حفص عمر بن الشهيد ومقامة ابي محمد بن مالك القرطبي ومقامة عبد الرحمن بن فتوح ومقامة ابن المعلم وكلها مذكورة في ذخيرة ابن بسام ، كما وضع الدكتور احسان عباس بالجزء الثاني من كتابه عن الادب الاندلسي في صفحات ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ فهرسا طويلا بمن عثر عليه او سمع به من كتاب المقامات بالاندلس ! هذا الفهرس الطويل ذي الصفحات الاربع يطلعنا على مدى اهتمام الادباء بمعارضة المقامات ، واحتفالهم بها احتفال المقدر العارف ! اما من شرحوا مقامات الحريري بالذات من شيوخ الادب بالاندلس فكثيرون نذكر منهم عقيل بن عطية المتوفي سنة ١٢١١ وابا العباس احمد الشريشي المتوفي سنة ١٢٢٢ ثم ترجمت ايضا الى اللغات العبرية واللاتينية مما دعا علماء الادب المقارن الى القول بتأثيرها في ايجاد قصص الشطار المعروفة بالادب الاسباني، فاتجه الكتاب الروائيون بايحائها الى التحدث عن احوال المجتمع وظروف الاغمار من الناس ، واخذوا يفتحون عيونهم على ما يشاهدونه من خوالج الفرد العادي وكفاحه في محيطه واحتياله على اقتناص رزقه ثم ابدعوا روائعهم في هذا الاتجاه الواقعي متناسين هذه الاحلام الهادئة التي كانوا يملئون بها قصصهم الخيالية قبل ذلك متخدرين بأناشيد الرعاة، وتم لهؤلاء الاسبان من وراء ذلك كله قيادة الادب الاوربي الى عالم الواقع الملموس .

وقد اهتم الاستاذ الدكتور محمد غنيمي هلال بهذا التأثير الواقعي في كتابه « الادب المقارن » فضرب كثيرا من الامثلة الناطقة باقتباس قصص الشطار من ادب المقامات ، ونص على ان اول قصة من هذا الضرب القصصي في الادب الاسباني كان عنوانها « حياة لاسوريو ومحنته » وقد نشرت اول مرة سنة ١٥٥٤ ، وفيها وصف لطفل بائس كان ابنا لطحان فقير ، سجن والده لجريمة صغيرة كانت منه ومات في السجن دون عائل يرعاه ، فبدأ حياته شحاذا يتسول ، وقد اهتدى في حرفته الحقيرة بأعمى متمرس داهية كان يسن له طريق الشحاذة ثم يختلفان بعد حين لشراهة الاعمى وطمعه في ابتزاز صاحبه ! فيتركه ليعمل خادما لدى قس محترف يعيش على اموال الصدقات ، ويشاهد غرائب عجيبة من بخله وجشعه واثرته ثم يتركه هو الثاني الى خدمة نبيل يتشدق بعراقة منبته وهو فقير لا يكاد يجد ما يأكل فيضطر الى ان يتسول لحسابه ويعطيه من كسبه الشحيح ! والسيد النبيل يتعجرف عليه ويأبى ان يجلس معه على مائدة واحدة لانه سوقة وهو نبيل ! ثم ينطلق الى غيره فيرى من فضائح الشرف وهتك العفاف في اوساط دينية وملكية ما ينغص له الحياة .

هذه عناصر اول قصة تمثل ادب الشطار وصلتها بالمقامة لا تحتاج الى تبيين ! هذا وقد افاض الدكتور هلال في الحديث ايضا عن قصص الفروسية في الادب الاسباني وجعل الادب العربي ملهمها الاول ، ووضح الصلات القوية بين اقاصيص كريتيان دي تروا ، وسان بدروا وجارثي اوردوينس في صفحات ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ من الطبعة الثالثة وبين اقاصيص الفروسية والحب العذري لدى العرب ، ولم ينس المقامات في مطافه حيث عقد مقارنة هامة بين المقامة البشرية ذات القصيدة المشهورة للبديع :

افاطم لو شهدت ببطن خبث وقد لاقى الهزبر اخاك بشرا
اذن لشهدت ليثا ام ليثا هزبرا اغلبا لاقى هزبرا

وبين قصة لانسيلو « الفارس ذو العربة » اذ يلاقي البطل محنا متوالية في تخليص حبيبته من السجن فيعبر على جسر حاد كنصل السيف فوق نهر مروع هائل يسمى نهر الشيطان ولا يستمع الى تحذير اخوانه ثم ينازل اسدين رهيبين في معركة ساخنة ينتقل منها الى مصارعة العملاق العنيف « ميلياجان » كل ذلك ليحوز رضا معبودته الحسناء ! وبطل البديع بشر بن عوان من هذا الطراز فهو يقوم بمغامراته الجنونية ليفوز بحبيبته التي

تحتجب عنه في قصر ابيها ويصارع الآساد والحيات مما يوحي بالتقارب الداني بين الاتجاهين !!

ومؤرخو الادب يذكرون ان اول قصة ظهرت في اوروبا تمثل الاتجاه الواقعي بعد ان كافحت في سبيل الظهور آمادا طويلة هي قصة باملا للكاتب الانجليزي رتشرد سن سنة ١٧٤٠ وكان ظهورها وليد المصادفة اذ طلب من المؤلف انيكتب سلسلة من الرسائل التعليمية بتثقيف الطبقة الوسطى ممن لم يصيبوا حظا من التعليم فخطر له ان يبدعها فينهج قصصي ليكون اشوق واجذب فأحدثت دويا رنانا لم يكن يتوقعه المؤلف وهي في مضمونها تعالج مسائل العفاف والشرف والتوبة والندم وقد جذبت الانظار أثناء تأليفها حتى كان القراء الذين يتابعون القصة مسلسلة في ابواب يلاحقون الكاتب ليخفف من وطأة حكمه على كلاريسا احدى بطلات القصة! واعتبرت بذلك اول قصة واقعية تتحدث عن مجتمع مشاهد متطور واشخاص يرون ويسمعون وجاز لبعض النقاد ان يبالغ فيضع رتشرد سن في مصاف هوميروس وشكسبير ! ولك ان تسأل عن بذور هذا الادب الواقعي فتجده في المقامات المترجمة الى اللاتينية ثم في قصص الشطار الاسبانية المتفرعة عنها ثم فيما يلي ذلك من الروائع حتى تصل اخيرا الىكبار القصاصين العالميين من امثال هيجو ودي موباسان وتشيكوف وعشرات من نظرائهم .

لقد تحدثنا عن الف ليلة وليلة وعن المقامات ، ولا بد ان نختم القول بكلمة عن كليلة ودمنة واثره العميق في ادب القرون الوسطى وما تلاها الى اليوم ، وكتاب كليلة ودمنة هندي نقل الى العرب عن طريق فارس ! ولكن الاصل الهندي كالصورة الفارسية مفقودان لم يعثر عليهما باحث في تراث الهند والفرس ، حتى ترجم الى الفارسية من العربية نفسها . ولك ان تضحك لهذه المفارقة حين تحتاج ادب من الاداب الى ما اعاره ادب آخر فيعود اليه ثانية بعد تحوير وتعديل لم يكونا لديه ! واقول بعد تحوير وتعديل لان ابن المقفع حين نقل الكتاب الى العربية تصرف فيه ببعض الزيادة على سبيل الجزم وببعض النقص على سبيل الاحتمال يدل على ذلك ما حكاه البيروني وقد قرأ الاصل الهندي وشاهد تصرف ابن المقفع فهم بترجمة للكتاب لاندري اصرفته عنها شواغله الكثيرة ام انه ابدعها ثم غرقت في خضم الضياع .

يقول ابو الريحان البيروني في تحقيق ما للهند من مقوله : « ولهم ـ للهند ـ فنون من العلم اخر كثيرة وكتب لاتكاد تحصى ولكني لم احظ بها علما وبودي انكنت اتمكن من ترجمة « ينج تترا » وهو المعروف عندنا بكتاب كليلة ودمنة فانه تردد بين الفارسية والهندية ثم بين العربية والفارسية على السنة قوم لا يؤمن تغييرهم اياه ، كعبد الله بن المقفع في زيادته باب برزويه فيه قاصدا تشكيك ضعيفي العقائد في الدين وكسرهم للدعوة الى مذهب المانيه ، واذا كان متهما فيما زاد لم يخل مثله فيما نقل » .

وقد تزيد البيروني على ابن المقفع فاشتط في حكمه عليه بالظنة لا باليقين ، ومهما كان من شيء فالنسخة العربية المقفعية هي التي سلمت من الضياع ، وبقيت اصلا لهذا النوع من القصص ، وقد سافرت الى الاندلس فيما سافر من كنوز اللغة العربية ، وقد ثبت انها ترجمت بيقين الى اللغة القشتالية سنة ١٢٦١ بناء على امر الملك القشتالي الفونسوا الحكيم وبذلك تكون اسبانيا اسبق الامم الاوروبية الىقراءته والاستفادة منه.

فاذا ظهرت بعد ذلك قصص « الفابليو » وانتشرت في فرنسا انتشارا جعلها على كل لسان ، وكان بينها ما أخذ نصا من كليلة ودمنة فذلك دليل على تأثير الكتاب في الادب الفرنسي ! والا فماذا يقال في قصة تذكر بحوادثها واشخاصها مطابقة لقصة سابقة في كتاب ذائع معروف ! لقد دافع بعض النقاد مثل « جوزيف بيدييه » بان التشابه بين القصص الخرافي لدى الشعوب لا يدل على نقل وتأثر ، لان الشعوب الفطرية تتلاقى في تخيلاتها وتصاويرها تلاقيا عفويا من قبيل توارد الخواطر فقط ! وهذا مسلم اذا كان التشابه في الاطار العام او الروح المسيطر ، اما ان يكون في ذلك مع الاجزاء الدقيقة والتفاصيل الخاصة فهذا ما يتعذر قبوله ! قد تخترع قصة عن مكر الثعلب في اكثر من ادب دون ان يتأثر لاحق بسابق اذ ان الفكرة العامة عن الثعلب هي الخديعة والاحتيال ، وانها لتكون اطارا لكل ما يمكن أن يندرج فيه من عناصر المكر واساليب الدهاء ، اما ان تكون القصة عن الثعلب مطابقة في جميع خطواتها لقصة سابقة فان مما تنكره طبائع الاشياء ان تكون الموافقة اذ ذاك عفوية اعتباطية بل لك ان تحكم بالتأثر مهما انقطعت وسائله التاريخية عن عينيك ، فالتماثل المطابق هنا فوق النصوص الجازمة بالتأثر والتأثير ! بل اذا فرض ان هذه النصوص التاريخية قد وجدت فعلا ولم يوجد معها مثال التأثر فهي مدعاة شك وارتياب ، اما اذا عكس الامر كمسألتنا هذه فوجد النص وعزت الوسيلة ، فلنا ان نحكم بالتأثر الى ان تتمخض الايام عن نص تاريخي يشفع في تأكيد الصلة فقط ، ولكن اختفاءه لا يوهنها بحال ...

لقد كان فيما روي من اقاصيص « الفابليو » قصة اللص الذي حاول ان يتسلق ضوء القمر ، وملخصها ان « سارقا اعتلى بيت ثري من الاثرياء في ليلة مقمرة فشعر به صاحب المنزل ، فطلب من امرأته بصوت خفيض ان تسأله في الحاح كيف جمع ثروته ؟ فتسأله ! ويجيبها بعد تمنع انه جمع ثروته من السرقة وانه كان يتلو رقية

الوتر المجرح

أحبك ... لا لقـاء ولا تمنـي ... فحبك ، فوق آثامي ، تجنـي !
أخافك فـي اقترابك ان تبوحي ... وأخشى عنـك ان يحكى وعنـي
أحاذر منـك ايمـاء خجولا ... وأحرص لـو تململ فـي ظني
اذا ارتقصت جفونك فوق قلبي ... وغبـت ألـم الاشتات منـي
صحوت عليك فـي دنياي شعرا ... أصوغك شعة فـي خيط فني !
انـا أحيـا بحبك فوق نفسي ... فأفنى .. ثم يحييني .. ويفني!
أنـا الوتر المجرح دون لحن ... أنـا الشادي .. ولكن لا أغنـي
زرعت على دروب العمـر كرمـي ... وما عرفت خموري ، بعد ، دني
هـي الدنيا لـدي قصور حب ... وانثى ... تهـدم الدنيا وتبني !

عصام العريضي

سحرية فيحمله ضوء القمر الى داخل المنزل ليجمع ما يريد ، ثم يتلو الرقية ثانية فيرفعه ضوء القمر ليخرج سالما ، وهذه الرقية هي كلمة « سول » ينطقها سبع مرات واذ ذاك ينخدع اللص بما سمع وينطق بالرقية ثم يسلم نفسه الى الضوء ليقع فتنقطع اوصاله وتكسر ساقه اليمنى وذراعه ويدركه صاحب المنزل فيقول له اللص : قد سمعت نصيحتك لسوء حظي وعملت بها وهأنذا احتضر » الادب المقارن ص ٦٦ !

هذه الاقصوصة مأخوذة من كليلة ودمنة في باب برزويه وليس بينها وبين قصة الكتاب العربي غير اختلاف في كلمة واحدة وهي كلمة الرقيا ! اما جميع الجزئيات والتفصيلات فواحدة ! ومعنى ذلك ان تأثير كليلة ودمنة مبدئيا في قصص الفابليو امر لا شك فيه !

امـا انتشار نصائح كليلة ودمنة فـي الاوساط المسيحية فأنبه من ان يشار اليه فقد صار المثل المحتذى في كتب الحكم والامثال وحاكاه دون خوان مانويل وارثبرست دي هيتا حتى جاء لافونتين فأحسن استغلاله بصورة واضحة ، بل ان الشك في خرافات « ايسوب » قد وصل ببعض الباحثين الى القول بأنها دخيلة على اليونان ، اذ نسبها الى ايسوب بعض المزورين دون ان يكون له جهد في تأليفها وهي هندية في صميمها تنحو منحى كليلة ودمنة وتتأثر به وتقتفيه .

يقول الاستاذ عمر الدسوقي في كتابه « دراسات ادبية » ص ٥ بعد حديث عن الحكاية الهندية « وقد انتقلت هذه الحكايات من الهند الى فارس ثم الى الشام فاليونان حيث ترجمها يلانودس وهو قسيس يوناني في القرن الرابع عشر ونسبها الى (ايسوب) ومن هذا الطريق دخل في الاداب الاوروبية كثير من الحكايات الهندية القصيرة ، ولا سيما الحكايات التي يتكلم فيها بعض الحيوان ، وهي التي تعرف في عالم القصة بالامثال تحت العنوان المزور (حكايات ايسوب) والذي يقرأ هذه الحكايات وهو عالم بالقرى الهندية وحياة الهنود يدرك تمام الادراك ان هذه الحكايات نبتت في بلاد الهند ، وليست من عمل ايسوب اليوناني ، واصدق مثل على هذا حكاية الحمار في جلد اسد لان بوذا حين يحكي الحكاية يصور فيها قرى الهند وحياتها تصويرا زاهيا لا يدع مجالا للشك فيها ونطق الحيوان والطير في هذه الحكايات نشأ عن العقيدة التي دعا اليها بوذا وهي ان الانسان اذا مات رجع ثانية الى الحياة في صورة اخرى فان كان ما عمله في حياته السابقة شرا رجع في صورة حية او وحش ، وان كان ما عمله خيرا رجع الى الحياة في درجة اعلى من درجته التي مات عليها ، وكل هذه الحيوات حياة واحدة ، ورجل صالح مثل بوذا يستطيع ان يتذكر ما مر به من حيواته المتقدمة والقصص الهندية الاصيلة ما هي الا الخمسمائة والخمسون مولدا التي مر بها بوذا » .

لعلنا قد اطلنا الاستشهاد : ولا بأس به في بيان راي جديد يقبل المناقشة متى اتيحت اسبابها ، واذا كانت قصص الخرافة لا تندرج في القصة بمعناها الفني فانها لون من الوان القصة ، ولها كتابها الفنيون من ذوي الملكات الروائية وانصارها المستنبطون من اساتذة الحكم والاخلاق !! وتأثير كليلة ودمنة في هذا المجال اوضح من ان يذكر ! على ان الاندلس كانت معبرة الى الاداب الاوروبية جمعاء فليذكر لها ذلك مدعما بالاسناد.

الفيوم — دار المعلمات
محمد رجب البيومي

انينا متواصلا كان يصل اليه وهو يجتاز الجسر العريض .. انين خلائق تتعذب وتتلوى من سياط حمراء . كان يريد ان يستمر في السير .. ولكنه بين كل لحظة واخرى كان يقف ويصيخ السمع .. كانت هناك امراة عجوز تصدر عنها بعض الكلمات المبهمة مع الانين الطويل . الوقت اصيل بعيد يمتد طويلا حتى يكاد الزمن كله يذوب في لحظاته المحتضرة .. والشمس تترفق على الوجود فتصبغ ذلك الاصيل بلون باهت اجرد .

توقف قبل ان يصل الى الحافة الاخرى .. واقترب من عرض الجسر والقى نظرة مشفقة الى اسفل .

نساء وعجائز واطفال وشيوخ .. كلهم يتأوه .. وجميعهم يصرخ ويبكي ويندب . ثيابهم في لون واحد .. واصواتهم تتشابه الى حد بعيد .. ووجوههم تكون تكون وجها واحدا يتدرج في العمر وتترفق معه السنون . وارخى ساعديه على حاجز الجسر وراح يتأمل . وتمضي اللحظات بطيئة في ملل ، واذا شيخ مسن يتطلع اليه لايكاد وجهه يفارقه ويرفع يده ويشير للشيخ العجوز ان اطمئن فكل شيء على ما يرام . ويرتفع صوت العجوز يخاطبه :

— بني . امش . فالطريق امامك طويلة .. لا تتوقف وتنظر الينا ، نحن كلنا خطايا لم نعرف قيمة المسير . كان الطريق عندنا الهية والمسير ضياع .. مررنا يوما كما تمر انت اليوم .. فتوقفنا طويلا ، واستمتعنا بما تستمتع به الان .. فكان نصيبنا ان بني الجسر فوقنا وظللنا في اسفل هكذا لا تخطر لاحلامنا منافذ الامل .. امش بني ولا تتوقف .

العجوز المسن يبكي . دموعه حمراء . زوجته تخفف عنه بأنين . ثم تتكلم بكلام مبهم لا يفهم منه شيئا .. هنا عاشوا . وانجبوا . وهنا سوف يموتون .

قالت له امه يوما :

— بني . لا تتوقف وانت في طريقك الى المدرسة لئلا يضيع عليك الوقت وتتأخر .

وشاهد الصبي الصغير صباح احد الايام رجلا وقردا . كان القرد يشبه الادمي الى حد بعيد . كان يأكل الموز بعد ان يقشره ، ويصرخ به صاحبه فيتوقف عن الطعام . ثم يشير اليه من جديد فيعطيه الموز ثم يضرب له بدف يحمله فيرقص القرد رقصا عجيبا . ويدور الرجل والقرد تستعبده سلسلة حديدية طويلة ، ويمشي وراءه ويقدم الدف للمارة الذين توقفوا يشاهدون المخلوق العجيب ، فيرمي كل واحد

مدية العبيد

بقلم عدنان الداعوق

منهم بضعة قروش ويمشي .

ويظل الصبي الصغير يتابع رحلة هذا المخلوق العجيب في عالم العجائب .. وينسى نفسه ، ويتلهى بمنظره ورقصه وحفلة جمع القروش .

وتمضي ساعة وساعة .. واذا هو اخيرا امام باب المدرسة المغلق كالقلعة المهجورة لا مجال لدخولها . ويعود الى المنزل . وتستقبله الام :

— لماذا عدت مبكراً .. اهناك حدث في المدرسة ؟ ويتلعثم وهو يجيب :

— كلا ، ولكنني كنت اشاهد القرد وهو يأكل ويرقص ويأتي عملا عجيبا ..

نظرات الشيخ المسن لا تزال متعلقة به ، ودموعه يذرفها في حنين مكبوت وزوجته الى جانبه تلاطفه وتعاطفه . اشار اليه وهو في اسفل :

— كنت اتلهى وانا حديث السن في طريقي الى المدرسة بمشاهدة القرد وهو يرقص . وكنت ادع كل شيء ولا التفت له ، ولا تهمني الا متعتي الصغيرة .

هل عرفت قيمة العظة ابدا ؟!

قالت له امه :

— يا بني . لئلا يفوتك قطار العلم الحق به سريعا .. ولئلا يفوتك قطار الحياة حاول الا تتوقف في اية محطة حتى لا تتأخر وتفقد وسيلة نقلك الى هدفك .

نهض من فوق حافة الجسر وحاول ان ينزل الى اسفل .. الى حيث تجمعت هذه الخلائق العديدة ، فسمع صوت الشيخ يهيب به :

— لا تنزل الينا . ماذا تبغي من نزولك ..؟ عاود مسيرك فلا بد ان تصل . اما نحن فمقضي علينا لا محالة .

ووجد مكانا ضيقا تهدمت حافته. ونزل .. كانت بينه وبين الجموع مسافة طويلة .. وشاهد العجوز المسن يركض نحوه في اسراع . واستطاع ان يلمح من بعيد سلسلة حديدية تستعبده من رقبته. وتذكر فجاة كل شيء .

— اماه ، صدقيني انني لن اتأخر بعد اليوم ولن اقف في الطريق مهما كانت الالهية .

وفي اليوم الثاني كان يذهب صباحا الى المدرسة .. وشاهد من بعيد الرجل والقرد يجلسان كصديقين حميمين على رصيف الشارع ، وكأنهما يتنادمان ويتشاكيان الذل والهوان . ففير الصبي الصغير طريقه ، وانحرف

قصة

في شارع فرعي ورغبته المحمومة تجره الى خلف ليعود فيشارك القرد وصاحبه التنادم والتشاكي . وليشفي غليل نفسه الصغيرة المنطلقة .

وحين اقترب الشيخ المسن قال له :

– ماذا تريد ؟ هل نسيت كل شيء تلقنته في حياتك؟ اننا قوم تافهون عجزت الحياة عن تعليمنا . اننا نرقص والقرود هي التي تدربنا ، انظر . ومد يده الى رقبته ، كانت السلسلة الحديدية قد جعلت وصمتها في عنقه .. وتدلت من الطرف الاخر لتسير وراءه كالظل.

ومد يده ، وقبل ان يتناول قطعة الحلوى من يد امه ، قال لها :

– هل سمعت يا اماه . القرد قتل صاحبه بالامس بينما كان يرقصه .. انه لم يفهم معنى الصداقة . كان الرجل يعامله بكل لطف وحب ، ويطعمه الموز ... ويجمع له القروش ليشتري له كل شيء . واخيرا قتله بكل وحشية. وحين نظرت اليه امه . استطرد في فزع يقول :

– كلا والله لم اشاهد . ولكن زملائي في المدرسة قصوا علي القصة . اليس ذلك شيئا رهيبا يا اماه .؟

كان العجوز المسن قد مسح عن عينيه اثار دموعه الغزيرة ، وتطلع نحوه طويلا ، ثم جلس فوق حجر كبير ، وقال :

– كنت اتعذب دوما .. كنت اشتاق الى الحرية ، ولكي اعيش كما يحلو لي العيش .. انام متى اريد ، واستيقظ متى اريد .... وآكل متى ارغب ، واحجم عن الطعام متى احب . كنت اتشوق الى العيش الحقيقي .

واسند العجوز راسه فوق راحتيه ، وقال :

– قصتي طويلة جدا . ودعني احكي لك شيئا منها : « .. خلقت عبد اعمل في حقل يملكه ثري كبير .. كنت مقيدا في كل شيء .. حتى في عبوديتي ، التي كنت اريدها في شكل ، فتفرض علي في شكل اخر . عملي في الحقل لا ينتهي .. الثور عمله ينتهي .. اما انا فكنت حين انتهي من عملي التفت الى الثور لاهتم به ، ولا يهتم بي احد . ومالك الحقل يقتني اجيرا ظالما . لا عمل له الا اخذ السوط وملاحقتنا في الظهيرة والشمس تحرق الاجساد . انظر . جسدي يحمل علائم عبوديتي . واخيرا . ماذا اقول .؟ ضقت ذرعا بحياتي التي لم تكن ملكي ابدا .. كلا . انا لم اخلق حرا . بل كانت امي عبدة. وكان ابي اجيرا عند المالك الكبير . فانا لم استعبد وقد ولدت حرا .. بل تدرجت في عبوديتي . وانجبت عبيدا انضموا الى القطيع الكبير الذي يعيش بلا هدف ولا امل .. ونويت الانتقام . اردت ان اعيش لحظة واحدة بحرية مطلقة . وفكرت ان اقتل المالك الكبير » .

– اماه ما تظنين القرد فاعل بنفسه . وهل اذا قتل صاحبه يتحول الى انسان ؟ انا لا اظن ذلك . فالقرد قرد سواء اقتل صاحبه ام بقي معه . وضمته الام بعطف وحب . وقالت له :

– انه لكذلك . وهيا الان الى مدرستك .

وافاق العجوز المسن من غيبوبته القصيرة .. واستمر في حديثه : « .. كانت ليلة شؤم . ولكنها كانت زاخرة بالحرية . ولاول مرة فكرت بحرية . وتناولت مدية مسنونة وذهبت الى قصر المالك الكبير ، وجلست عند الباب ابكي بصوت مسموع . فخرج الي الاجير الظالم ، وضربني . فما ازددت الا بكاء وعويلا حتى خرج بعد آن المالك الكبير .. وما ان رأيته حتى انقضضت عليه وطعنته طعنات عديدة . ومات .. وبعد ذلك تدرجت عبوديتي .. وانطمرت امالي في مستنقع نتن .. ولم تنته قصتي بعد . لم تنته . فها هو سجني . سجني الكبير الذي سوف اموت فيه .

– اماه . هل عرفت اخر قصة القرد الذي قتل صاحبه بالامس ؟

نظرت الام الى ابنها ، وقالت :

– وهل عرفت انت ؟

قال الصبي الصغير :

– ان الجميع يتحدث عنها . فبعد ان قتل صاحبه هرب الى شوارع عديدة ، ولاحقه رجال عديدون ، واخيرا رموا فوقه شبكة ضخمة واصطادوه .. وقالوا ايضا انهم سيأخذونه الى حديقة الحيوان .. فهناك تربى الحيوانات ضمن اقفاص من حديد لا تخرج منها وهناك تأكل وتشرب وتنام .

والتفت الصبي الى امه متسائلا:

– الم يكن الافضل للقرد لو بقي مع صاحبه ولم يقتله لعاش اذن في سعادة اكثر .؟

قالت الام :

– كلا يا بني . لقد كان صاحبه يسجنه ايضا بسلسلة من حديد . بل الافضل للقرد لو كان يعيش كما يشاء في الغابة . ينام متى يرغب ويأكل متى يريد ولا تطوق عنقه سلسلة من حديد .

... والطريق طويلة طويلة ... اصيل ينطوي وشمس تشرق وتغيب . والجسر العريض يمتد بعيدا بعيدا . والانين لا يزال يتصاعد من اجساد خلائق تتعذب وتتلوى من سياط حمراء . ويستمر هو في المسير . وتستمر الشمس تشرق بمنتهى الحرية على كل الوجود .

حمص عدنان الداعوق



نجاتي صدقي

فاسكو دا غاما وابن ماجد

بقلم نجاتي صدقي

* * *

ليس المقصود من هذا البحث دراسة طبيعة الزحوف الاوروبية نحو الشرق في القرن الخامس عشر للميلاد ، ولا تحديد معالم « الرأسمال التجاري » لتلك الحقبة من الزمن ، وانما المقصود منه تناول قضية فرعية لها مساس بتلك الزحوف ، وهي علاقة الرائد البرتغالي الاشهر فاسكو دا غاما (١) بالملاح العربي احمد بن ماجد .

امر ملك البرتغال عمانوئيل الاول ملاحه الكبير فاسكو دا غاما باكتشاف الطريق الموصل الى الهند بحرا ، فاقلع من لشبونة في الثامن من تموز سنة ١٤٩٧ بأسطول صغير مؤلف من سفينة القيادة (سان غبرييل) ، و (سان رفائيل) ، و (بريو) ، وسفينة رابعة تحمل المؤن والهدايا .. وراح يمخر المحيط الاطلسي الى رأس الرجاء الصالح في الجنوب الافريقي مباشرة ، فقطع مسافة اربعة الاف ميل في اكثر من ثلاثة اشهر ، ثم دار حول رأس الاعاصير الى ان ألقى مراسيه في خليج موسل ..

وكان يرافق دا غاما مؤرخ (٢) يدون يوميات الرحلة ، فترك اليوميات ولم يترك اسمه ، فأصبح يدعى المؤرخ المرافق .. يقول هذا المؤرخ في يومياته : « بقينا في موسل ثلاثة عشر يوما بسبب تحطم سفينة المؤن وتحويل محتوياتها الى سفن اخرى ، واقمنا في هذا الخليج نصبا الا اننا ما كدنا نغادر الميناء حتى هاجمه الاهلون وحطموه » .

ويتابع يومياته بقوله : « وكان علينا ان نقطع ، منذ بدء الرحلة ، ٨٠٠ مائة ميل ونحن نرتاد شواطىء مجهولة قبل ان نبلغ الموانىء الاسلامية .. ونزلنا في ارض اطلقنا عليها اسم بلاد الناتال ، حيث لقينا استقبالا حسنا من قبائل الليمبوبو Limpopo والبانتو Bantu المسلحة بسهام واقواس طويلة وحراب حديدية .. والنحاس موجود هنا بكثرة ، ولذا اطلقنا على الليمبوبو اسم « نهر النحاس» واطلقنا على البانتو اسم «بلاد الشعب الطيب» .. ثم ابحرنا شمالا ومررنا بسوفالا Sofala في الثامن والعشرين من شهر كانون الثاني سنة ١٤٩٨ ، ودخلنا نهر كيليمان Kiliman حيث لمسنا المدنية الاسلامية في شخص شاب جاء من بلاد بعيدة قد سبق له ان شاهد سفنا كبيرة مثل سفننا » .

واستمر دا غاما في رحلته على امتداد السواحل الافريقية الى ان بلغ الموزمبيق ، وهو اول ميناء اسلامي ، فيقول المؤرخ المرافق : « وجدنا فيه اربعة مراكب عربية محملة بالذهب ، والفضة ، والزجبيل ، والتوابل ، وجوز الطيب ، وكميات من المجوهرات والحجارة الكريمة .. ولقد زار سفننا سلطان الموزمبيق ، الذي كان يعتقد اننا مسلمون ، ورفض قبول الهدايا التي قدمناها له ، طالبا اثوابا حمراء لم نكن نحملها » .

والتقى دا غاما في الموزمبيق بمرشدين عربيين خبيرين في البوصلة ، والمزولة ، والخرائط ، والحقهما بسفينة القيادة ، وتابع رحلته الى ان بلغ مومباسة حيث جرت محاولة من الاهلين للاستيلاء على السفن البرتغالية ليلا ، الا ان الحيطة التي اتخذها دا غاما احبطت هذه المحاولة.

وبعد يوم جديد من الابحار وصل البرتغالي الصغير الى ميناء مالندي ، حيث استقبل بالترحيب من سلطان مالندي ، وهو ينتمي الى اسرة فارسية ، والتقى البرتغاليون في مالندي بجماعات من الهندوس فخيل لهم انهم مسيحيون .. فيقول المؤرخ المرافق : «الهندوس هم طائفة مسيحية ، حتى ان بلدتهم مالندي كثيرة الشبه ببلدة الكوشيته Alcochete البرتغالية الواقعة على نهر تاغوس بالقرب من لشبونة .. بيوتها عالية ، بيضاء اللون ، كثيرة النوافذ ، محاطة بأشجار النخيل ، وبحقول الذرة والخضار » .

وقدم سلطان مالندي الى فاسكو دا غاما ملاحا هنديا ليرافقه في رحلته البحرية الى الهند ، فغادرها في الرابع والعشرين من شهر نيسان سنة ١٤٩٨ ، وبعد ثلاثة وعشرين يوما من الابحار المباشر في المحيط الهندي، وصل الاسطول البرتغالي الى مدينة كالكوت في غرب الهند ، وهي غير كالكوتا في شرقها ، ونزل المغامرون الى اليابسة وزاروا اهل ساموري Samuri وخيل لهم انهم مسيحيون ايضا ، فيقول المؤرخ المرافق : «قادونا

الى كنيسة كبيرة ، وشاهدنا على جدرانها رسوم القديسين بأشكال مختلفة ، وهم يضعون على رؤوسهم التيجان ، ولهم انياب تبرز من افواههم .. واياد عديدة تبرز من جوانبهم ..! »

واقام فاسكو دا غاما وكالة تجارية برتفالية في كالكوت ، ثم عاد الى البرتغال وهو يحمل لمليكه كل غال ونفيس ونادر ، معيدا الطريق البحرية التي تربط القارة الاوروبية بالشرق الاقصى ، قاطعا عشرة الاف ميل ، وهي اطول مسافة قام بها رائد في تاريخ الارتياد البحري ، بعد ان فقد ثلث رجاله لا في معارك ضارية وانما بفعل مرض الاسقربوط الناتج عن عدم تناول الخضار والفاكهة الطازجة .

والان من هو الشاب المطلع الذي التقى بفاسكو دا غاما في منطقة نهر كيليمان ؟ .. ومن هما المرشدان العربيان اللذان الحقا بالاسطول البرتغالي من الموزمبيق الى مالندي ؟ .. ثم من هو الملاح الهندي الذي انضم الى قيادة دا غاما في اجتياز المحيط الهندي من مالندي الى كالكوت ؟ ...

يرى بعض الباحثين ان فاسكو دا غاما قد تعرف الى الملاح العربي احمد بن ماجد في مالندي ، وتحدث اليه واعجب بمقدرته في الشؤون البحرية، وان ابن ماجد هو الذي ارشد الملاح البرتغالي الى الطريق البحرية المؤدية الى الهند بان رافقه في اسطوله الصغير ،بل شاركه قيادة هذا الاسطول وتوجيهه .

والواقع ان ليس ما يثبت ان احمد بن ماجد قد قام بهذه المهمة ، فالباحثون يعتمدون في اثباتها ، كما يعتمد المؤرخ الفرنسي غبرييل فراند Gabriel Ferrand على عبارة وردت في كتاب « البرق اليماني في الفتح العثماني (٣) لقطب الدين محمد بن احمد النهروالي ، « ٩١٧ – ٩٩٠ هـ ، ١٥١١ – ١٥٨٢ م » ، تحدث فيها عن السفن البرتغالية التي كانت تحاول المرور بمكان من جنوب القارة الافريقية كثير الامواج ، فلا تستقر به سفنهم وتتكسر ، ولا ينجو منهم احد .. « الى ان دلهم شخص ماهر من اهل البحر يقال له احمد بن ماجد ، صاحب كبير الفرنج ، وقال لهم : لا تقربوا الساحل من ذلك المكان، وتوغلوا فيالبحر ثمعودوا فلاتنالكم الامواج».

فهذا الوصف ينطبق على منعطف رأس الرجاء الصالح وليس على مالندي التي يقال ان دا غاما قد التقى فيها بأحمد بن ماجد ، ثم ان « مخطط التوغل في البحر والعودة » اي التعرج البحري هو من بنات افكار الرائد البرتغالي بارتولوميو دياز Bartolomeo Diaz مكتشف رأس الاعاصير او رأس الرجاء الصالح (٤) .

وقصة هذا الرائد ان ملك البرتغال يوحنا الثاني اراد ان يستغل « فكرة كريستوفر كولومبوس » بعد ان سخر منها، فأوفد سنة١٤٨٦ ملاحا قديرا هو بارتولوميو دياز ليكتشف الطريق البحرية الى الهند ، فتوجه دياز بأسطوله بمحاذاة سواحل افريقيا الغربية الى ان بلغ رأس الاعاصير ، فلاقى الاهوال وهو يحاول اجتياز ذلك الرأس ، فلجأ الى طريقة التعرج في البحر الى ان تم له اجتيازه ، وبلوغ خليج موسل ، ثم عاد الى مليكه ليقول له انه عجز عن الوصول الى بلاد الهند بحرا .

وعلى ذلك يحتمل جدا ان يكون « كبير الفرنج » الذي تحدث عنه النهروالي هو بارتولوميو دياز وليس فاسكو دا غاما ، وقد التقى احمد بن ماجد في خليج سانت هيلين ، وعبر معه رأس الرجاء الصالح حتى خليج موسل .

ولا يستبعد ان يكون المؤرخ البرتغالي فرناو لوبيز دا كاستانهيدا FernaoLopez DaCastanheda قد اعتمد على النهروالي في حديثه عن الملاح العربي ، في كتابه « تاريخ اكتشاف وفتح الهند من قبل البرتغاليين » (٥) مع ان المؤرخ العربي لم يأت على ذكر فاسكو دا غاما وانما قال « كبير الفرنج » فقط ، ثم لا يعقل ان يرافق احمد بن ماجد دا غاما من مالندي الى الهند ، ولعله عاد معه الى الساحل الافريقي ، ويظل اسمه نكرة بالنسبة للمؤرخ البرتغالي الذي رافق الرحلة بأكملها ودونها في يومياته .. واخيرا المعروف عن ابن ماجد انه ناظم اراجيز يعبر بها عن ارائه ومشاعره ، فلماذا لم يترك لنا ارجوزة يتحدث فيها عن رحلته مع فاسكو دا غاما وهي رحلة قد اقامت المنطقة في ذلك الزمن ولم تقعدها حتى ايامنا هذه .

هناك ارجوزة يقال انها لابن ماجد ورد ذكرها في كتاب « الخليج العربي » للاستاذ قلعجي ص ٣٥٢ ، يعزو العثور عليها الىالمستشرق الروسي تيودور شوموفسكي يقول في مطلعها :

وساحل البحر وكل جزره — فحكمها للبرتغال الكفرة
والبرتغالي حكم الجميعا — كفيت كل الشر والتصديعا
وجا لـ «كاليكوت» خذ ذيالفائدة — لعام تسعماية وسنة زائدة

فهذه الارجوزة تتحدث عن شرور البرتغاليين في الهند بعد ان استقر لهم المقام و« حكموا الجميعا » ولعام « تسعماية وسنة زائدة » ، وهو ما يعادل سنة ١٤٩٤ ، قبل وصول فاسكو دا غاما الى كالكوت بأربع سنوات .

من الثابت ان فاسكو دا غاما قد اعتمد على بعض المرشدين في طريقه الى الهند ، ولكن ليس ما يثبت انه اعتمد على ابن ماجد بالذات .. فكتاب « تاريخ العالم » لسميث ، موزي ، ولويد يقول بهذا الصدد : « لقد استفزت اكتشافات كريستوفر كولومبوس البحار البرتغالي فاسكو دا غاما ، وحملته سنة ١٤٩٨ على الابحار حول رأس الرجاء الصالح متجها الى الساحل الشرقي لزنجبار .. وهناك اعانه احد الملاحين العرب على اجتياز المحيط الهندي الى ان بلغ كالكوت في

هندستان » ص ١٨٥ .

ثم ان الاستاذ محمد عبد الغني حسن لم يأت على ذكر احمد بن ماجد في الجزء الخاص بـ «فاسكو دا غاما» من سلسلة قصص الرحالة والمكتشفين ، ويصف الشخص الذي رافق الملاح البرتغالي بـ « الدليل الهندي » ص ٧٦ .

ويقول الاستاذ محمد ياسين حموي في كتابه « الملاح العربي » ص ٨ و٩ ، وعلى لسان المؤرخ البرتغالي جواو دا باروس Joao Da Barros ان دا غاما التقى بملاح اسمه « كاناكا » ..

ويقول الاستاذ قدري حافظ طوقان : « ان ابن ماجد من الملاحين العرب الاقدمين الذين نبغوا في الملاحة، ووقفوا على دخائلها وعرفوا اسرارها .. ولد في نجد حوالي سنة ٨٤٠هـ ، ١٤٣٤م » .. الى ان يقول : « وثبت لبعض علماء الغرب ان فاسكو دا غاما استعان بابن ماجد في تسيير اسطوله من مالندي الى كالكوت في الهند .. وكانت وفاة ابن ماجد نحو سنة ٩٠٠ هـ الموافق لسنة ١٤٩٤ م » (٦) .

وعلى ذلك يكون احمد ابن ماجد قد عاش ستين عاما ، وتوفي قبل وصول فاسكوا دا غاما الى مالندي بأربعة اعوام .

ثم يحقق الاستاذ فؤاد افرام البستاني في هذا الموضوع ويذكر في موسوعته ان احمد بن ماجد المعروف بأبي الركائب ، والشيخ ماجد ، والملقب باسد البحر ، توفي حوالي سنة ١٤٩٥ ويقال انه هو الذي سير الاسطول البرتغالي بقيادة فاسكو دو غاما» (ج٣ ص٢١٠).

فكيف سير ابن ماجد الاسطول البرتغالي بعد وفاته بثلاث سنوات ؟ ..

وهكذا نشأت معضلة ابن ماجد بصدد علاقته بفاسكو دا غاما ، دون ان تجد حلا ثابتا ، لكن هناك شبه اجماع على ان ملاحا « عربيا او هنديا » قد قام بدور المرشد البحري للاسطول البرتغالي بقيادة دا غاما ، في البحر العربي وفي المحيط الهندي ، وهذا الاجماع لا يتناقض مع يوميات المؤرخ البرتغالي المرافق للرحلة ، ولا ينفي ما للعرب من فضل كبير على الملاحة البرتغالية .

خلاصة البحث : اولا : لم يثبت بعد ان احمد بن ماجد ، هو الذي ارشد فاسكو دا غاما الى طريق الهند البحري وان نفي هذا الامر عنه لا يؤثر في كونه علما من اعلام الملاحة العربية ، كما انه لا ينكر ما للعرب من فضل كبير على الملاحة البرتغالية في البحر العربي وفي المحيط الهندي .

ثانيا : ان المؤرخ البرتغالي الذي رافق دا غاما في رحلته لم يأت على ذكر احمد بن ماجد ، وانما قال انهم تعرفوا الى شاب مسلم في بلاد الناتال « قد سبق له وشاهد سفنا كبيرة مثل السفن البرتغالية » ، ثم استأجروا مرشدين عربيين في الموزمبيق حتى مالندي ، ثم ان سلطان مالندي قدم لهم مرشدا هنديا رافقهم حتى كالكوت .

ثالثا : ان الوصف الذي ورد على لسان المؤرخ العربي النهروالي ينطبق على رحلة بارتولوميو دياز وليس على رحلة فاسكو دا غاما ، ويحتمل ان يكون احمد بن ماجد قد التقى بدياز في خليج سانت هيلين سنة ١٤٨٦، وكان للملاح العربي من العمر ٥٣ سنة ، وليس بدا غاما سنة ١٤٩٨ ، بحيث يكون لابن ماجد من العمر ٦٤ ، في حين ان التواريخ الموجودة بين ايدينا تقول انه مات في الستين من عمره .

رابعا : ليس لدينا من التواريخ الثابتة عن الفترة التي وضع فيها ابن ماجد اراجيزه الا ما ذكره هو نفسه في ختام كتابه « الفوايد في اصول علم البحر والقواعد » أذ قال : « وختمنا هذا الكتاب في عام خمس وتسعين وثمان ماية ، على الاختصار بقولي اوصيكم بتقوى الله ، وقلة المنام ، وقلة الطعام ، ونستغفر الله من التقصير والزيادة والنقصان » .

فيكون ابن ماجد قد ختم كتابه قبل وفاته بخمس سنوات ، وتدل كتاباته على انه كان كهلا ، جم الخبرة ، مكتمل النضوج ، يلقب بالشيخ ، واسد البحر ، وابي الركائب .

خامسا : وردت في نهاية كتاب ابن ماجد عبارة اخرى مندمجة بالعبارة الاولى تقول : « تم الكتاب بحمده تعالى وعونه وحسن توفيقه وهو المسمى بكتاب « الفوايد في اصول علم البحر والقواعد » ، وذلك في يوم الاحد المبارك سابع عشر ربيع الثاني سنة اربع وثمانين وتسعمائة هـ ، احسن الله عاقبتنا وبالله التوفيق » .

فهذه العبارة خاصة بناسخ الكتاب ، اي انه اتم نسخه بعد انقضاء ٨٩ سنة على وفاة ابن ماجد ، فكان ان وقع المرحوم الشيخ سعيد الكرمي ، عضو المجمع العلمي العربي في دمشق سنة ١٩٢٢ ، بخطأ فادح ، فظن ان العبارة الثانية هي لابن ماجد ، فذكر في المجلد الاول الجزء الثاني من مجلة المجمع ان ابن ماجد كتب بعض

---

(١) يلفظ اسم العائلة بالبرتغالية دا غاما وليس « دي » او « دو » .

(٢) A Journal Of The First Voyage Of Vasco Da Gama By : Ernest George, London 1898

(٣) غزوات الجراكسة والاتراك في جنوب الجزيرة المسمى (البرق اليماني في الفتح العثماني) منشورات الرياض سنة ١٩٦٧ . »

(٤) دياز هو الذي اطلق على ذلك المكان اسم رأس الاعاصير ، الا ان الملك يوحنا الثاني وجد ان هذا الاسم يوقع الرعب في نفوس الملاحين البرتغاليين فاستبدله باسم رأس الرجاء الصالح . (٥) صدرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب في لشبونة سنة ١٥٥٤ . (٦) من حديث اذيع من محطة الشرق الادنى في شهر تموز سنة ١٩٤٤ ، في باب مشاهير التاريخ .

الى فاطمة محمد برناوي

والى كل عربية مناضلة

يا اخت (خولة) يا فتاة بلادي ... يا فخر يعرب يا ابنة الامجاد
يا ظبية ضيمت فهبت لبوة ... تحمي الحمى وترد كيد العادي
زأرت فروعت العدى بزئيرها ... يا للرجال لصوتها الرعاد
غضبى وفي غضب الانوثة قوة ... ترعى وتدعم صولة الآساد

أرأيتها تصلي العدو بنارها ... والحرب ذات لظى وذات جلاد
والطائرات كأنها أسطورة ... للجن تقذف جمرة الاحقاد
والزاحفات كأنما في جوفها ... وقف الردى للناس بالمرصاد
ومدافع دوت بأرجاء الفضا ... مجنونة الارعاد والايعاد
لم تخش من أهوالها بل أقدمت ... عربية الامداد والانجاد
أعظم بها تأسو الجريح بعطفها ... والعطف أنجع بلسم وضماد
تحنو عليه كأنه من أهلها ... لم تكتحل من أجله برقاد
وتروح تقتحم الصعاب لتقتفي ... أثر الكماة بعدة وبزاد
وتمد أيدي البر تقطر بالندى ... للبؤس ترفده بخير رفاد
وتخفف الآلام عمن جردوا ... مما لهم من طارف وتلاد
حيا الاله كفاحها وجهادها ... ورعى حماها من أذى الاوغاد

أرأيت من رزئت بفقد وحيدها ؟ ... أمل الحياة وفلذة الاكباد
وارته وهي تقول حسبي أنه ... نال الشهادة في سبيل بلادي
ان لم يذد عن موطن ابناؤه ... من يا بني يصد شر العادي
أنت الفداء فنم بقبرك هانئا ... والنصر بعدك اجر كل مفادي
هذا الدم الزاكي الذي خضب الثرى ... هو من دم الأجداد للاحفاد
قد اورثوك فكنت اكرم وارث ... بذل الدماء فدى ثرى الاجداد

وسجينة في اللد تصبر للاذى ... لم تستكن لارادة الجلاد
صاحت به عاشت بلادي حرة ... لا ترج يوما ان يلين قيادي
لن يفعل السوط الذي تهوي به ... ظلما علي سوى مزيد عناد
لن يخرج التعذيب حرفا من فمي ... يهديكمو لمكامن الآساد
قد حيرت عقل العدى بصمودها ... وابائها وذكائها الوقاد
يا سجن (فاطمة) وألف تحية ... تهدى اليك مع النسيم الغادي
ان اظلمت فيك الحياة فانما ... في ثوب (فاطمة) سناء جهاد
وعزيمة لا تلتوي وتشبث ... بالحق يصدع باطل الاضداد
لله والوطن المقدس والفدى ... ما ذقت من ألم وطول سهاد
صبرا فقيد المعتدين محطم ... يوما وانت طليقة الاصفاد
والسجن للفتيات في حفظ الحمى ... فخر يدوم على مدى الآماد

حلب

محي الدين الحاج عيسى

الرسائل سنة ٩٨٤ هـ وبعضها سنة ١٠٠١ هـ ، فيكون الملاح العربي قد عاش ١٦٠ !..

وقد رددت مجلة العربي الكويتية هذا الخطأ في العدد ٢٩ ص ٧٠ – ٧١ ، وقالت ان ابن ماجد عاش مائة سنة ..

سادسا : ان هذا البحث هو اجتهاد القصد منه تقويم بعض الاخطاء العربية والاجنبية المتعلقة برحلة فاسكو دا غاما وما لها من صلة بالملاحة العربية في القرن الخامس عشر للميلاد .

نجاتي صدقي

زكي مبارك بين الامل واليأس

بقلم مصطفى درويش الدباغ

* * *

اذا راض الاديب نفسه على قراءة لون معين من الادب والشعر ، في اوائل عهد شدوه بالادب ،كقراءة شعراء الغزل والنسيب والحب والعشق ، وغذى نفسه بأمثال هذه الموضوعات الوجدانية التي ترضي طبيعة الشباب والشهوة الجامحة والحيوية الوثابة ، ولم يلتفت للموضوعات الاخرى ،الا قليلا ، فلا شك ان جمرة الموضوعات الوجدانية تبقى متقدة متوهجة فيها ، حتى انها لتطبع حياته بطابع الوجدانية والحساسية ، ولا يرى الوجود الا من خلال هذا الفيض الزاخر من الاهواء العارمة الصاخبة ، ويقل اكتراثه بكل حاضر حسي فلا يثيره الا ما استقر فيواعيته الباطنة منثورات الوجدان، ويعيش حياته مرهف الحس مشتعل الصبوة رقيق الوجدان ، يتأهب للعشق والصبوة واقتناص الجمال مدفوعا بحرارة هذا الوقود الضخم الذي انصب في مسارب نفسه ، لا يهدأ ولا يركد ، فتي القلب حيوي الوجدان ، واذا ما هدأ قليلا وطلب النجدة معتزلا في صومعة نفسه يجتر ذكريات الالم والشجن والسرور ، فانه ما يلبث حتى يثور على ثورته الهادئة المفيظة اعصارا هدأ قليلا ، ثمانضم علىنفسه محتشدا للوثوب والانفجار.

وهذا هو شأن الدكتور او الدكاترة زكي مبارك كما كان يلقب نفسه .. قرأ دواوين شعراء الغزل والنسيب في الجاهلية والعصور الاسلامية وغذى نفسه منها في مطالع شبابه ، فبدا على لون كتابته الطابع الوجداني الصرف ، ويتضح ذلك جليا فيما كتبه عن عمر بن ابي ربيعة ، وفي كتابه مدامع العشاق ، وصبابة بن الاحنف لقد تغلب الطابع الوجداني على طابع الباحث وامدنا بثروة جميلة من صدق تجاربه الشعورية الوجدانية ، فبدا كتابه عن ابن ابي ربيعة .. وكأنه مقالة وجدانية ادبية اكثر منه بحثا علميا ، وفي هذا كان على عكس ما كتبه الاستاذ عباس محمود العقاد عن ابي ربيعة اذ يتجلى فيما كتبه العقاد عنه ، الطابع التاريخي والتحليلي والمنطق الجاد والفكر الوقاد ، ويقل الطابع الوجداني .

لم يترك الدكتور زكي شاعرا قديما جاهليا او اسلاميا ، سفك دمعة على حبيب هجر واورانا دخائل روحه ونفسه ونبضات قلبه، الا واورد له نصا خاصا في كتابه «مدامع العشاق» . لقد التقت دموعهم فيما اورده من قصائدهم وشذراتهم ، تخلبك منه عبارات الاستحسان والتذوق ، تأكيدا لما في نفسه من حب مستعر ووجدان متقد ، تتغلب الوجدانية على كل تحليل وتدقيق ، لان الدكاترة مولع بالنص لذاته ، لا بالدوافع الذاتية التي تختفي وراء النص . لقد سادت كما قلت هذه الوجدانية الذاتية على كتابته فيمطالع شبابه، بيد انها ايضا وجدت لها منافذ كبرى ارتسمت في مقالاته وكتبه التاريخية التحليلية ، التي كتبها في ابان كهولته ككتاب النثر الفني ، والتصوف الاسلامي ، ومحاضراته عن الشعراء والادباء .. كل هذا كان بسبب الاستيعاب المليء ، لادب العشق والحب والوجدان في صدر شبابه ..

لقد احس الدكاترة احساسا عجيبا بالجمال ، فافتتن بالوجه الجميل والنظرة الرشيقة والقامة الهيفاء ، وبكل مظهر جميل من مظاهر هذا الكون ، مثل ما افتتن بالمقطوعة الرشيقة والقصيدة العصماء والمقالة البليغة ، وكان اشبه بالقاص الانساني « تولستوي » يحدثنا في اعترافاته ، بانه ما اشرق عليه وجه جميل الا واهتزت له نفسه مشدوهة دهشة ، فكأن تولستوي الة موسيقية شدت اوتارها واحتضنها الجمال وعزفت اناملة عليها واستخرجت منها اعذب الانغام وارق الاناشيد ..

لقد تضخمت شخصيته الوجدانية الى حد عجيب، فنبت فيها شعور الاستعلاء تغذيه العرامة والعنف ، وشعور الاستعلاء يربي الحاقدين وينشيء المبغضين ، ووضحت نفسه فلم يخبئها متخابثا كما كان يفعل المازني وبدت صريحة الى ابعد غايات الصراحة ، وكيف لا يكون صريحا وهو الذي استمد وقوده ، من شعراء الصراحة الذين انكبوا على انفسهم يشرحون اهواءها ويبدون ما خفي على الناس منها ، يترقرق على حلو نشيدهم وجمال موسيقاه صريحا خاليا من كل تصنيع ونفاق ..

والصراحة تجني على صاحبها في ميدان الحياة الاجتماعية ، اذ يتطلب في هذه الى التزلف والرياء ، فقد صفع بقلمه وحرارة قوته كثيرا من ارباب النفوذ ، الذين آلت اليهم القوة ، بحيث يضغطون على الزر ، فيسقطونه من المنزلة التي ارتقى اليها ، ينالون من رزقه وصفاء حالته المادية ، وهكذا كان ، الا ان الاحداث لم تنل من صفاء روحه فلملم نفسه ليصمد للكفاح وللنزال والمعاكسة امام الادباء والكتاب وارباب النفوذ ، عاش اواخر شبابه وكهولته مكافحا مناوئا، يتوثب كما يتوثب الفرس الجواد، ناعيا سوء تقدير المجتمع والناس له ، وناعيا محاربة الصراحة والعبقرية بوسائل المكر والخداع . ان تكوين الرجل الجثماني ، وما استمده من فحولة عارمة ارثا عن الاباء والاجداد ، وما ورثه من مضاء العزيمة وجراة القلب ، كل هذا أورثه الصمود في معركة الحياة ، ولكن الجواد لا بد له من كبوةوعثرة .

عـذاب

أحقـا رحلـت ؟.. أنـا لا
أصدق ... هـذا الهـراء

ولست أصدق ان النجوم
تنام بحضن الاسى والشقاء

لـو انـك قلـت وداعـا
وأبقيت فـي القلب بعض العزاء

لمـا قلـت انـك غـدارة
وانـك لا تعرفيـن الوفـاء

لاول مرة ...
اقـول اليـك بأني حزيـن
وانـي بكيت بغيـر انتهـاء
وأذللت دمعـي كأنـي اغتربت
وودعت عهـد الاماني الوضاء
لاول مرة ...
يلوح بآفاق عمري الفناء

أحقـا رحلـت ؟.. أنـا لا
أصدق هـذا الهـراء

أمـر أمـر كسابـق عهـدي
لعلـي أراك صبـاح مسـاء

وأسأل عنـك ضميـر الليالي
وعطـر الورود وبـدر السمـاء

ولا شيء يطفيء نـار اشتياقي
ويشفي الغليل ويروي الظمـاء

ومهما افترقنـا ... ستبقيـن
وحـدك انـت الرجـاء

ستبقين وحدك سـر الخلـود
وسـر الحياة وسـر البقـاء

ستبقيـن شمعـي المضـاء
ستبقيـن حبـي ! ... وتبقـى جميع فصـول حياتـي شتـاء !!

عمان ـ الاردن
عبد الرحمن عاليه

لقد وهب نفسه ، في اواخر حياته ، للحب والخمر والنغم والتصوف محتميا في ظل هذه الاقانيم الاربعة يأسا من معاول اولئك الذين يتطاولون على العبقريـة واطفاء روح النبوغ بأنفاسهم الحرار الحاقدة ، ولكنـه وهو على سرير المرض اخذت شعلة الكفاح المستقرة في اعماقه تدفعه الى مناوأة حاسديه ، فجاهد في كتابته ، ليستطيع ان يعثر بالقرش الشريف ليرد غائلة الجوع عن عائلته ، بعد ان مكن لها المسكن الرحيب . كان الدكاترة يكتب بقوة الرجل الجسور في كتابته عرام وشدة ، لا يخشى شيئا يلاحظ ويدقق ويأتي بالمعجب المطرب في تسجيل جوانحه وخواطره ، تنثال عليه الخواطر متدفقة كالسيل ، واذا هطلت عليه وسحت ، اشتدت حركـة وحيوية اسلوبه ، واذا بان على اسلوبه احيانا بعـض التفكك ، الا ان ذلك من فيض الحيوية لا من جدبها ، انه كاتب انفعال لا كاتب افتعال . ان كاتب الافتعال يستمد وقوده من كاتب الانفعال ، فيمط فـي اسلوبه ويحاور ويداور ولكن تنقصه تلك الحرارة التي يمتاز بها كاتـب الانفعال ..

ما اروع المبارك ، حين يتدفق بمقال كله احاسيس ، يصور صبوته بالمحبوب الذي سافر للقائه وهو علـى المحطة يقول : « في المحطة نزل جميع الركاب ، وبقيـت وحدي بمن انتصر على هذه الوحدة القاسية ، وقد هجم القيظ على القطار ، وهجم الوجد على قلبي ، سأخلق لنفسي مجتمعا صخابا ، من احزاني واشجاني وسأبعث الاموات من ضلالاتي فيما سلف من ايامي وانا في جميع احوالي طبيب نفسي ، وانا لنفسي خير الاطباء » ويقول في موضع اخر « زار احد الناس احدى حدائق الحيوان، فطاب له ان يقدم للاسد قطعة من الخبز ، كالذي صنع في ملاطفة احد القرود ، ولكن الاسد عرف طعامـه الصحيح فانتزع لنفسه ذراع ذلك المخلوق ، وكذلـك صنعت لنفسي ، فما اكتفيت بمعاقبة العيون السود ، وانما اقتديت بذلك الاسد الصوال ، فتركت العيون السود مضرجة بالدمع النجيع ففي عين كل دعجاء لمع حمراء ».

وهكذا فالدكاترة ابي عزيز النفس حتى في حبه ، لم تنل الاحداث من روحه، ولا تطاولت الى انفته، ومات عزيزا كريما وهو ينشد :

اذا اعتكرت دياجي الظلم حينا
نقرت ظلامهـا ، ثـم ابتسمت

وان طالت ، مصاولـة الليالـي
هزمت حيالهـا ، فيمـا هزمت

زمـان لـم اجد فيـه صديقـا
اشاطره سروري ان فرحـت

عمان ـ الاردن
مصطفى درويش الدباغ

ابن خلدون الاديب الناقد

بقلم محمد قنديل

* * *

عبد الرحمن بن خلدون علم من اعلام تراثنا الحضاري ، وتراث الانسانية جمعاء ، وهو ظاهرة فريدة في التراث العربي على مر العصور ، ذلك اننا لم نجد عقلية تشابه هذه العقلية ، في مقدرتها على دراسة الظواهر الاجتماعية التي سادت – بالاخص – في القرن الرابع عشر الميلادي، فهو الذي ابتدع علم الاجتماع ، او كما نسميه : علم العمران والاجتماع البشري ، وهو بهذا سبق اوجست كونت بعدة قرون في هذا المضمار .

وقد نال هذا العلم الفذ اهتماما كبيرا في مجال الدراسات الاجتماعية ، فكانت هناك الدراسات التي تتعمق اغوار نظرياته الاجتماعية، وكانت هناك الدراسات التي حللت نظريته السياسية تحليلا عميقا ناجحا ، وتكاد بعض هذه الدراسات تربط بين نظريته هذه ونظرية ميكافلي السياسية ، التي تعتبر الجملة المشهورة (الغاية تبرر الواسطة) محورها ولباب المحصل فيها .

الا ان القليل هو الذي يعرف ابن خلدون الاديب والناقد والمؤرخ الادبي ، والحق ان نظرياته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية قد طغت على ما له من باع طويل في مجال الادب والنقد ، لذا سيكون موضوع حديثي عن ابن خلدون هو ادبه ونقده .

ولد ابن خلدون في تونس عام ٧٣٢ هـ ، وتوفي في القاهرة عام ٨٠٧هـ ، وتوفي والداه بوباء الطاعون الذي اجتاح تونس ، وهو سليل اسرة عربية اصيلة تنتمي الى حضرموت ، وهي أسرة تقدر العلم والادب ، فتوفيهما كل اهتمام . اخذ العلم عن والده منذ الصغر ، ولما توفي والده كان قد تجاوز السابعة عشرة من عمره ، فانقطع عن الدرس والتحصيل .

وقد اخذ علومه عن عدة اساتذة مختصين بمجالات مختلفة ، فقد قرأ على ابي عبد الله محمد الانصاري القرآن بالقراءات السبع ، كما درس عليه لامية ورائية الشاطبي ومن اساتذته في الادب واللغة ابو عبد الله محمد الزرزاني وابن القصار وغيرهم ، ونجد ثبتا طويلا في ترجمة ابن الخطيب للكتب التي درسها ابن خلدون والشيوخ والاساتذة الذين اخذ عنهم وحضر مجالسهم ، ونجد مثل هذا في ترجمة ابي المحاسن بن تغري بردى له ايضا ، وبالاطلاع على هذه التراجم يتبين لنا عظم الثقافة التي حصل عليها وتنوع هذه الثقافة .

كان اول عمل اشتغل به هو كتابة العلامة للسلطان ابي اسحاق ، وهي ، كما يعرفها الاستاذ محمد عنان في كتابه «ابن خلدون» : « التوقيع باسم السلطان وشارته على المخاطبات والمراسيم الملكية » .

وعندما رحل الى مصر اشتغل بالتدريس – بالاضافة الى منصب القضاء – في عدة مدارس منها : المدرسة القمحية ، وهي احدى مدارس المالكية ، والمدرسة الصالحية ثم المدرسة الظاهرية البرقوقية ، ومدرسة صرغتمش حيث كان يدرس الحديث .

يتضح لنا خطورة منصب « كتابة العلامة » الذي تولاه لابي اسحاق ، فقد كان يعني مقدرة ابن خلدون منذ حياته على معالجة القضايا الادبية . وبالفعل فقد بدا حياة الاديب مع بدء حياة العمل ، فقد عالج الادب شعرا ونثرا منذ وقت مبكر ، ولكنه يبدع في مجال النثر ، بينما يقصر عن الابداع في مجال الشعر .

فقد حمل لواء الثورة على الاساليب النثرية الشائعة في عصره – عصر البديع والتلاعب بالالفاظ والزخرف من القول في الادب – فدعا الى العودة بهذه الاساليب الى ما كانت عليه في ايام عبدالحميد الكاتب فيقول : « وهذا الفن المنثور المقفى ادخل المتأخرون فيه اساليب الشعر ، فوجب ان تنزه المخاطبات السلطانية عنه » ، والمحمود في ذلك « الترسل وهو اطلاق الكلام وارساله من غير تسجيع الا في القليل النادر ، حيث ترسله الملكة ارسالا من غير تكلف له » .

وهو بهذا يدعو الى ان يكون النثر حسب ما تمليه طبيعة الغرض الذي وجد له ، ليس فيه من المحسنات البديعية الا ما جاء عفو الخاطر ، فلا كد ولا اعمال ذهن ، يخرج بالموضوع الى ان يكون تكلفا اكثر منه طبعا . الا اننا نلاحظ ان ذلك ما كان ليسير عليه في جميع نثره ، ويظهر ان للمجتمع الذي عاش فيه أثر على ذلك . فما كان الحاكم والسلطان ليرضى عن المدح الا بالطريقة الشائعة في عصره .

ونحن نرى شبيها لابن خلدون في هذا ، ابا نواس في شعره ، فقد ثار على الاساليب الشعرية القديمة من مقدمات طللية وغيرها ، الا انه عندما كان يتوجه لمدح خليفة كالمهدي مثلا ، فهو يبدأ بما بدأ به شعراء عصره ، من ذكر الاطلال والظعن والنسيب ومشاق السفر ، ليكون لشعره قبولا لا يقل عن قبول شعر غيره عند الخلفاء والحكام .

وهكذا نرى ابن خلدون رغم ثورته على المحسنات البديعية ، يدخل هذه المحسنات ، وخاصة السجع ، في خطبة كتابه المشهور « العبر » الذي اهداه الى السلطان ابي العباس عندما وضعه لاول مرة . ومن قوله في اول

خطبة له عندما عين مدرسا بالمدرسة القمحية ، وقد حضرها لفيف من سراة القوم ورجال العلم : « ولما سبحت في اللج الازرق ، وخلوت من افق المغرب الى المشرق ، وشجرة الملك التي اعتز بها الاسلام تهتز في دوحة المعرق ، وازهار الفنون تسقط علينا من غصنه المورق ، وينابيع الكلام والفضائل تمد وشلنا من فراته المغدق ... الخ » .

والحقيقة ان ابن خلدون دعا الى الاهتمام باللفظ اهتماما يفوق الاهتمام بالمعنى حين قال في مقدمته : المعاني موجودة عند كل واحد ، وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضي ، فلا تحتاج الى صناعة » ، فهو يضع اللفظ في الموضع الاول ، ويجعل المعنى تابعا له ، وهو بهذا متأثر من بعيد او قريب بالجاحظ حيث يقول : « ان المعاني مطّروحة في الطريق ، يعرفها العجمي والعربي ، والبدوي والقروي ، وانما الشأن في اقامة الوزن ، وتمييز اللفظ وسهولته وسهولة المخرج .

ولن نرى احدا يوافق ابن خلدون على رايه هذا وراي الجاحظ من قبله ، فهو التعسف الواضح ، والتعلق الشديد بمذهب الصنعة اللفظية ، فان لكل من اللفظ والمعنى اهمية كبرى ، اذ ان الكلام لا يؤدي غرضه الا اذا تعانق اللفظ والمعنى ، ووجد في كل منهما الجودة والطلاوة ، لذلك نرى ابن قتيبة في كتابه « الشعر والشعراء » يقسم الكلام الى اربعة اقسام : قسم جاد معناه ولفظه ، وقسم جاد معناه وقصر لفظه ، وثالث جاد لفظه وقصر معناه ، ورابع قصر معناه ولفظه ، وبطبيعة الحال فهو يفضل القسم الاول لتوفر الجودة في كل .

الا ان دعوة ابن خلدون الى هجر اسلوب الشعر في النثر قد خففت من غلواء تعلقه بهذا المذهب ، اذ ان معظم انتاجه النثري كان ترسلي الاسلوب ، ومن خير الادلة على هذا مؤلفاته العديدة ككتاب «العبر» و «المقدمة» و « التعريف » و « لباب المحصل » ، وخير الكلام عنده ما جاء عن سلامة طبع وبعد عن التكليف المقيت .

لقد عده البعض ذا اثر كبير في اسلوب النثر السائد في عصرنا هذا ، اذ يقول الدكتور علي عبد الواحد في كتابه (عبد الرحمن بن خلدون) : « وظل اسلوب الكتابة في معظم البلاد العربية على هذه الحال حتى طبعت مقدمة ابن خلدون بمصر في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي ، ثم في بيروت بعد ذلك بقليل ، وعم انتشارها ، وكثر تداولها بين الناس وتقرر تدريسها في بعض معاهد العلم ، وصاحب ذلك فترة ارتقاء ونهوض فكري ولغوي ، واحتكاك بالثقافة والاداب الاوروبية ، فأخذت حينئذ اقلام الكتاب والمؤلفين تتأثر بأسلوب ابن خلدون ، ولم يمض على ذلك امد طويل حتي سيطر هذا الاسلوب على جميع مناحي الكتابة » .

ويقول عنه العسقلاني « كان لسنا فصيحا حسن الترسل » ، وكانت اكثر الكتابة التي تصدر عنه «بالكلام المرسل الذي كان قد انفرد به ، وحاكى فيها طريقة عبد الحميد بن يحيى الكاتب » كما يقول ابن تفري بردى .

كنا نتوقع ان تصاحب دعوة ابن خلدون الى هجر المحسنات البديعية في النثر دعوة الى مثل هذا في الشعر ، ولكنا وجدناه يدعو الى هذه المحسنات في الشعر ، فالشعر كما يقول تناسبه اللوذعية وخلط الجد بالهزل ، والاطناب في الاوصاف وضرب الامثال وكثرة التشبيهات والاستعارات . الا ان دعوته هذه لم تكن ذات صدى عميق في نفسه ، فلم تظهر هذه اللوذعية والتلاعب في الالفاظ الا في القليل النادر من شعره ، كهذا البيت :

غربت ركائبهم ودمعي سافح ... فشرقت بعدهم بماء غروبي

فالطباق واضح بين غربت وشرقت ، والتورية ظاهرة في ماء الغروب الذي يقصد به الدموع .

والذي يظهر من قراءة ودراسة شعر ابن خلدون انه من ذوق اصحاب المدرسة القديمة ، التي كانت تسير على نهج واضح معين ، فقد كانت تبدأ قصائدها بذكر الاطلال والظعن والنسيب ، وقد ظهر اثر هذا الذوق في كثير من مطالع قصائده ، ويظهر ذلك ايضا من ايراده اراء شيوخه الذين كانوا يعيبون شعر المتنبي وابي العلاء لنكوصه عن التقاليد القديمة في بناء القصيدة العربية ، فمن مقدماته الطللية :

هذه الديار فحيهن صباحا ... وقف المطايا بينهن طلاحا
لا تسال الاطلال ان لم تروها ... عبرات عينك واكفا ممتاحا
فلقد اخذن على جفونك موثقا ... ان لا يرين على البعاد شجاحا

وقوله من قصيدة انشدها ليلة المولد النبوي ، والتي يمدح فيها محمد بن يوسف بن الاحمر ، وهي من اشهر ما نظم ، وفيها نلمح الشبه بين شاعرنا وشعراء العصر الاموي ولكننا لا نجد فيها غرابة وحوشية تلك الالفاظ التي نجدها في كثير من اشعار هؤلاء :

اسرفن في هجري وفي تعذيبي ... واطلن موقف عبرتي ونحيبي
لله عهد الظاعنين وغادروا ... قلبي رهين صبابة ووجيب
غربت ركائبهم ودمعي سافح ... فشرقت بعدهم بماء غروبي

وقوله :

وقفت انشد صبرا ضاع بعدهم ... فيهم واسال رسما لا يناجيني

الا ان اثره الشعري قليل لا يقاس بما خلف لنا من ثروة نثرية ، وليس له من الشعر الجيد الا القليل النادر ، ومعظم شعره يتأرجح بين التوسط والاسفاف والتكلف وتعسف القوافي ، وهو يعترف بهذا حين يقول : « ثم اخذت نفسي بالشعر فانثالت علي منه بحور ، توسطت بين الجودة والقصور » وقوله « اجد استصعابا في نظم الشعر متى رمته » . وهو يعلل هذه الصعوبة وهذه الصفة في شعره ، بانه حفظ كثيرا من المتون النحوية

المنظومة والشعر والقراءات فأثر بالتالي على قريحته وملكته الشعرية . ويقدر ابن الخطيب – معاصره وصديقه – بانه لم يكن ماهرا في نظم الشعر تلك المهارة التي تضعه في مصاف الفحول من الشعراء .

ولعل قلة شعره راجعة الى انه كان يعتبر نفسه من اهل المراتب والمناصب العالية ، التي تجعل من صاحبها كعبة الشعراء ومحجتهم ، يستجدونه العطاء بالمدح ، ولعل لهذا السبب دخل في ندرة شعره ايام اقامته في مصر .

وقد كانت تلك الفترة التي قضاها في المغرب قبل رحيله الى مصر هي – كما يقول الاستاذ عنان – عهد البيان والشاعرية فاشتهر في دوائر الادب والشعر بالمغرب والاندلس يومئذ ، ويقول « ان شعر ابن خلدون تبدو عليه مسحة من التصوف ، وانه ينحو في كثير من قصائده منحى الشعراء الصوفيين في صوغ الغزل الروحي » . فقد درس التصوف واظهر تفهما له ، ويبدو ذلك واضحا في معالجته لعلم التصوف في مقدمته .

اما ابن خلدون الناقد ، فقد كان كما قال عنه بعض معاصريه جيد النقد للشعر ، فقد وجه همه الى نقد الشعر باعتبار اساليبه . ومع ان نقد ابن خلدون لم يمس المضمون والجوهر ، او لم يتعرض له ، فقد افاد ، ووضع لبنة هامة في اسس توجيه النقد الى الاساليب الشعرية التي رأى معاصريه يسيرون على هديها .

وقد تحدث في مقدمته حديثا طويلا عن البلاغة واللغة والادب ، يتبين منه مقدار ما كان يتمتع به من ثقافة واسعة وبصيرة نافذة ، فقد تابع في حديثه عن البلاغة حتى انتهت في عصره الى ان تكون صناعة مقصودة لذاتها .

وتحدث عن لغات العرب حديثا مستفيضا واوضح ان اللغة « ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها ، بحسب تمام الملكة او نقصانها » . فقد كانت اللغة ملكات اصيلة في العرب الاقدمين ، ولكن فساد هذه الملكات انما جاء عن اختلاط العرب بالعجم ، والعجم بالعرب ، فأصبحت اللغة بذلك ملكة صناعية تكتسب بالدراسة والتمرس علىاساليب التعبير المختلفة، بعد ذلك يوضح ان لغة العرب الموجودة – على عصره – لغة مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير ، ولا ينسى ان اللغة العامية الشائعة في عصره في الحضر والامصار فيقرر انها اختلفت عن اللغة الفصحى وابتعدت عنها ، ثم يوضح بعد هذا كله الطريقة التي يجب على المتعلم اخذ نفسه بها ليستطيع اللحاق بأهل الفصحى وهي عنده لسان مضر .

ويصل به الحديث الى الادب بقسميه : الشعر والنثر ، فيعيب على المتأخرين استعمال اساليب الشعر فيالنثر والالتزام في القوافي ، وتقديم الاطلال والنسيب بين يدي الاغراض الشعرية ، ويعلل ذلك باستيلاء العجمة على السنة الكتاب وبقصورهم عن اعطاء الكلام حقه في مطابقة مقتضى الحال .

الا ان ابن خلدون نفسه لم يكن بمنجاة من هذا العيب الذي اخذه على المتأخرين ، فقد وقع في مثل ما وقعوا من ذكر الاطلال والظعن في مطالع قصائده ،كما لاحظنا سابقا فيما اوردناه من شعره .

ثم يؤكد ان الاجادة في النثر والشعر لا تجتمع في شخص واحد ، الا الاقل النادر ، وسبب ذلك في رايه « انه اذا تسابقت الى محله – اللسان – ملكة اخرى ، قصرت بالمحل عن تمام الملكة اللاحقة » .

وتظهر لنا ملكته النقدية وقدرته واضحة حين يتكلم عن كيفية صناعة الشعر ونظمه ، وانواع المقدمات التي كان يبدأ بها الشعراء القدامى قصائدهم ، ولكننا قلما نقع على راي شخصي محدد له في الناحية التي يعالجها.

ويعد ابن خلدون من مؤرخي شعر عصره ، فقد ارخ لعدة انواع شعرية كانت وليدة البيئة التي نبتت فيها ، ولم تعرف من قبل . فقد ذكر لنا كيف نشأت الموشحات فيالاندلس ، وان اول من انشدها هو ابنمعافر الفريري، واخذ عنه ذلك ابن عبد ربه ، ولكن موشحاتهما اندثرت وعفا عليها الدهر والنسيان ، لتفوق الموشحات التي جاءت بعدهما عليهما لاستكمال اسباب الصنعة وذلك عندما استكملت وجوه واسس هذا النوع من الشعر . وهو بذلك يقرر ان ليس للمشارقة شيء يستحق الذكر من الموشحات ، اذ ان التكلف ظاهر على ما عانوه منها .

ويؤرخ ظهور الزجل بظهور الشاعر ابو بكر بن قزمان القرطبي ، امام الزجالين بلا منازع . كذلك يذكر ما سماه « عروض البلد » ، وقد ظهر كما يقول في المغرب، ومبتكره رجل اندلسي هجر الاندلس ، ورحل الىفاس، وهو ابن عمير ، ويشبه عروض البلد الموشح في نظمه الا انه خال من الاعراب وباللغة العامية ، وقد استحسنه اهل فاس ، وولعوا به ، وانتشرفي المغرب الاقصى .

ولا يفوته ان يؤرخ ظهور « الموال » او ما سماه في مقدمته « المواليا » في بغداد فقد استحدثه اهل بغداد، ولم يكن معروفا من قبل ، وهو باللغة العامية ، وتبع البغداديين في هذا الفن اهل مصر ، واتوا فيه العجائب. وهو في كلامه عن الموشح والزجل وعروض البلد والموال، يعني بالشواهد والادلة عنايته بتأريخ هذه الانواع نفسها، فقد اورد امثلة كثيرة على كل نوع ، يستطيع مطالعها في مقدمته ان يأخذ فكرة واضحة عن الفن نفسه .

واسلوب ابن خلدون يشوبه شيء من الاستطراد ، الا انه لا يصل الحد الذي وصل اليه الجاحظ ، ولم يشذ شذوذه عن الموضوع الاصلي الذي نذر نفسه له .

هذا هو ابن خلدون الاديب الناقد ، واننا لنأمل ان يتاح لهذه الناحية عند ابن خلدون دراسة وافية ، تفيه حقه ، والامل واسع في باحثينا الاجلاء ليكشفوا عن هذه الناحية الخيرة عند صاحبنا ، ليتبين الجميع نواحي الخلود في تراث هذا العلم الفذ .

الدمام – السعودية **محمد قنديل**

عمر زواجها طفلة ما زالت تعبث بالثدي لتنام . ولما سافر زوجها للخارج في بعثة قصيرة ، لبضعة اشهر ، وبقيت خلفه ، لم تشعر لاول وهلة بألم الفراق . احاسيس مبهمة من الحزن والقلق والضيق كانت تنتابها وهي تراه يصعد سلم الطائرة ويلوح لها مودعا . لكنها لم تستطع ان تميز مشاعرها الى ان عادت الى البيت ورأت بعض ممتلكاته الخاصة مبعثرة في ارجاء المنزل فتجسم فيها نوع من حياته، لمسات من وجوده معها .. وبدأ احساس الفراق يطبق عليها وكادت تبكي .. بالفعل ترقرقت عيناها بالدموع ولكن الدموع لم تسقط ــ حبسها الحياء والعناد ونوع من اللامبالاة .

كنت صديقا لعائلتها اكثر مني صديقا لعائلته او له .. في الواقع معرفتي به سطحية لاتتعدى عبارات المجاملة عندما نلتقي في منزلهم صدفة .. في زيارة لي لاهلها .. وكانت الكلفة مرفوعة بيني وبينها ، تتشاجر معي وتخطف مفتاح العربة من يدي وتستولي على جرائدي قبل ان اراها وتفتش جيوبي وتقرأ خطاباتي الخاصة وان رفض زوجها ان يأخذها للسينما قالت له بكل بساطة انها ــ واخوتها ــ سيذهبن معي . وتجلس في المقعد الامامي وتصيح في آمرة ! تعال سوق !..

ولما ودعتهم في ذاك المساء .. اول مساء تقضيه بدون زوجها شعرت انها تتشبث بي .. لا تريدني ان اذهب . وجدت في شيئا من زوجها ــ ربما اكثر ــ فهي قطعا تعرفني اكثر مما تعرفه .

وكنت في ذات الوقت في خلاف مع زوجتي ، وقد تركت المنزل وسافرت لاهلها في كسلا وتركتها تذهب وانا اتنفس الصعداء ، لم اعد احتمل عنادها ومناكفتها التي لا تنتهي . بدا لي اننا لا يمكن ان نعيش معا في ذلك الجو المشحون بالتوتر .

ولذا كان في وجودنا معا سلوى لكل منا .. ملء الفراغ في حياتنا ، احياء لعواطف اصابها الركود والكدر فكنا نخرج ومعنا احدى اخواتها لنقضي امسية في حديقة عامة او ندخل السينما او المسرح وكانت تتجه بالحديث عن زوجها .. عن الامسيات التي قضياها سويا ، الاماكن التي زاراها معا .. الافلام التي شاهداها معا . دائما تجعله يحضر جلساتنا كانما تخشى أن يتهمها بالخيانة ودائما تخرج معي بصحبة اخواتها كانها فعلا تخشى ان ترتكب خيانة .

غير انه بمرور الايام اصبحت اكثر التصاقا بي واقل حديثا عن زوجها . لو دار الحديث عنه حولته بنفسها وعن قصد بعيدا عنه وغيرت الموضوع باصرار واضح الى شيء اخر .

خطوات في الرمل

بقلم احمد محمد الامين

ذات مرة وهي بجواري في العربة .. لم تغلق الباب جيدا فاستدرت لاغلقه ورغما عني ضغط صدري صدرها ولفحت وجهي انفاسها ومتعمدا المعاكسة قبلتها في خدها قبلة خاطفة اقرب الى العتاب منها الى الغرام .. ولم تقل شيئا ، لم تعترض ولم تبد قبولا . ولم نعلق على الامر لا في حينه ولا بعد ذلك .

وفي مساء اخر وانا اودعها ضغطت على يدي ، ضغطة خفيفة قد تكون بريئة وقد تكون مجرد مشاكسة ولكني شعرت بها كيد امرأة جميلة تضغط على يدي .. وحررت يدي من قبضتها وذهبت في سبيلي وانا اتحسس مكان اصابعها واشعر بالخدر الذي خلفته .

احيانا اجدها في المنزل بقميص النوم .. قصير ، شفاف ومغري . وتجلس امامي في كرسي او بجانبي على سرير ولا أستطيع ان ارى فيها سوى امرأة جميلة ومرغوب فيها . وبدأ كل منا يقرأ افكار الاخر ويخجل منها ، كل منا يخشى ويود في نفس الوقت ان يسير في طريق الاغراء ، كل يمد يده في حذر وخوف وشغف الى التفاحة المحرمة . كان لا بد ان تسقط التفاحة في ايدينا من كثرة ما مددنا لها الايدي وبحلقنا فيها بالعيون ورجوناها ان تسقط .

ذات مساء خرجنا كالعادة ومعنا اختها الصغرى وفي الطريق قابلتها احدى صديقاتها فتركتنا وذهبت معها ونحن في قرارة انفسنا نحمد لها صنيعها ونكاد نشجعها رغم بعض عبارات جوفاء من الاعتراض تفوهنا بها بلا حماس حتى كادت تشك في نوايانا الحقيقية ــ او لعلها شكت فعلا .

وبدا وجدنا انفسنا وحدنا والعربة تسير بنا ببطء كانها تستحثنا ان نغير رأينا واستقبلنا البيت فاغرا فاه في دهشة ، اول مرة ادخله بصحبة امرأة غير زوجتي . وجلست على حافة الكرسي في ترقب كأنها تتوقع ان تدخل زوجتي وتطردها او يدخل زوجها ويجدها في بيت رجل اخر .. والصمت يطبق علينا الى ان فصلنا حتى من افكارنا . .

وتكررت زيارتها لمنزلي . لم تعد العربة تسير ببطء ولا البيت فاغرا فاه دهشا ولا الجو الصامت المشحون بالتوقع والوجل . امتزج وجودها في الكيان المنزلي حتى اصبحت جزءا منه بدات تألفه اكثر من بيتها . كانت لا تحدثني عن الخطابات التي تصلها من زوجها كانها لا تريد ان

قصة

الى المجاهدين

امتي امة الجبابرة العظمى ورمز الخلود في الازمان
ان ماضيك يدفع الحاضر اليوم بنار البركان بالطوفان
صرخات اللصوص تروي حواليك وتعوي حناجر القرصان
فاصمدي في وجوه مصاصة الدم ودكي معاقل الفيلان
واسحقي كل غاصب جاء بالغدر وردي العدوان بالعدوان
سوف تبقين في الذرى الشم رمزا في الليالي لعزة الانسان
واعاديك سوف يطرها التاريخ يوما في هوة النسيان
لو اتى اليوم الف (هولاكو) فالدنيا ستروي هلاكهم بالهوان
انت انت يا امتي سوف تبقين وتفنى قوافل الطغيان
امة في الحياة تبني الحضارات بهدي الانجيل والقرآن

البحرين — احمد محمد الخليفة

تجعل بيننا صلة . تريد ان تفصل علاقتها معي عن علاقتها مع زوجها كأن التي تعيش معي ليست التي تراسل زوجها . ولم يصلني من زوجتي ما يدل على انها ترغب في العودة او تشتاق لبيتها ولم آبه بها.

وازددنا التصاقا ببعض كأن ملاذنا الوحيد ان نكون معا حتى بدا لي ان ليس من السهل ان نتخلى عن بعضنا البعض او توهن العلاقة التي توطدت بيننا ، الى ان قالت لي ذات مرة ونحن ندخل داري وقد كانت صامتة طيلة الطريق :

ـ يومنا هذا ليس له ثان ..

قلت وقد بدأ القلق يساورني

ـ ماذا تعني ؟

فقالت : لن تراني غدا .. لن تراني أبدا ..

لما رات اني اطلب ايضاحا اكثر قالت :

ـ غدا سيصل زوجي .. لا .. لا تقل شيئا . ولا كلمة . لا مجال لجدال .. فلنعش يومنا هذا كأحسن ما نستطيع كآخر يوم في حياتنا ..

وضح لي من تصميمها أن فعلا لا مجال لجدال .. اني لن اراها بعد اليوم .. وقضينا يومنا ونحن ننظر الى وجودنا معا ينتزع منا دقيقة بدقيقة ويترك اثاره الما وحرمانا ..

وقفت وهي تودعني في مكاني على غير عادتي اذ كنت دائما اخذها الى منزلها . قالت والالم يقطر من كل كلمة تنطق بها كمن تجري له عملية جراحية عليها تعتمد حياته ، يحس بالالم حتى يكاد يراه بعينيه ولكنه يتجلد : على انه اخف الالمين .

ـ سنفترق من هنا .. لا تدع الصدف تضعك في طريقي تحت أي ظرف ..

قلت محتجا : ولكني صديق لاهلك .. منذ امد طويل ..

قالت وعيناها تحبس دموعا كادت تسقط :

ـ ادري ذلك .. ولكنا قد ختمنا على ذلك النوع من الصداقة بخاتم الموت يوم بدأنا علاقة اخرى .

ثم صمتت لتقول :

ـ لا بد ان اودعك من هنا .. شكرا .. شكرا على كل شيء .

واندفعت خارجة وتركتني احدق فيها وهي تبتعد وهمست كأني اكلم طيفها :

ـ وداعا .. وشكرا لك انت ، شكرا على كل شيء ..

ودخلت لادير قرص التلفون واطلب مكالمة خارجية .. سألتني فتاة الترنك سؤالها التقليدي وهي تقيد الرقم الذي امليت :

ـ عاوز المكالمة عادية واللا مستعجلة؟

فقلت بحماس :

ـ مستعجلة جداً جدا .

فضحكت قائلة :

ـ كلكم تريدون مكالماتكم مستعجلة

قلت : ليس هذه المرة .. اريد ان حدا جدا وغالبا لامر تافه ..!

قلت : ليس هذه المرة .. اريد ان احدث زوجتي .. اريدها ان تعود لي .

قالت فتاة الترنك :

ـ أني المح الالحاح في صوتك .. اني احسد زوجتك .. يبدو انكما سعيدان في حياتكما الزوجية ..

قلت كأني اكلم نفسي وحبات العرق تتجمع فوق حاجبي :

ـ سأبذل كل جهدي لنكون سعيدين ...

وقاطعني صوتها قائلا في اهتمام روتيني :

ـ قلم كسلا .. زوجتك في الخط

الخرطوم — احمد محمد الامين

مكتبة الاديب



الاركان الاربعة في ضوء الكتاب والسنة

تأليف السيد ابو الحسن علي الحسني الندوي امين ندوة العلماء العام بلكهنؤ الهند وعضو المجمع العلمي العربي بدمشق – ٢٨٨ صفحة – حجم كبير – منشورات دار الفتح ببيروت – مطابع معتوق اخوان ببيروت

تناول الكتاب اربعة من اركان الاسلام السنة : الصلاة والزكاة والصوم والحج في وضعها السماوي ، وحقيقتها الشرعية ، وتشريعها في الاسلام ، وغيره من الديانات السماوية ، ومكانتها في الدين وفي الحياة ومقاصدها واسرارها ... وذلك كله – كما يقول المؤلف – « في غير تكلف عجمي ، وتنطع فلسفي ، وتطرف شخصي ، وفي غير خضوع لافكار اجنبية واتجاهات عصرية ... » والمؤلف الفاضل يعترف بانه أعد بعض هذه الفصول لينشر في مجلة كانت تصدر في جنيف بسويسرا وليذاع من محطة الاذاعة العربية السعودية في مكة المكرمة.

ثم اكمل الكتاب بفصول اخرى اتماما للفائدة . ولكن المطالع لا يشعر بأي تفكك بين اجزاء هذا الكتاب الذي جاء سفرا جامعا لما تناوله من اركان الاسلام . سفر ننصح الى المسلمين اولا ، والى الشبان المثقفين منهم بصورة خاصة ، ثم الى غيرهم من المؤمنين بقراءته والتمعن في ما اورده من حقائق الدين والتشريع والفقه ، والفكر الفلسفي المنزه . وذلك كي يحققوا غرضين عظيمين : الاول هو معرفة الدين الاسلامي في موجباته على حقيقته . والثاني هو العلم بان اللغة العربية هذه ، ليست وقفا على العرب اصحابها الاصليين ، بل هي تراث انساني عام كما هي كل لغة حية عالمية .

والمؤلف العلامة السيد الحسني الندوي يقيم في كل فصل ، بل في كل صفحة دليلا تلو دليل على انه منبع غزير ، وعنوان بارز لهاتين المعرفتين : الدينية واللغوية ، برغم تواضعه في القول انه يلخص ما اورده « شيخ مشايخنا شيخ الاسلام احمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي » في مؤلفه « حجة الله البالغة » .

واجمل ما في هذا الكتاب الديني هي صيغته الادبية الآسرة . فانت لا تكاد تقرأ صفحاته الاولى حتى تجد نفسك مدفوعا الى الاستزادة من المطالعة ، فالى التهام الصفحات التهاما . ان اسلوب الكاتب رائع ، وهو يعلل وجوب الصلاة – اية صلاة – على اعتبارها مظهرا لتعلق الانسان بمثل أعلى . وان العبادة كانت على قدر مستوى الانسان وهو يتطور صاعدا من عبادة الاوثان الى توحيد الله . وان الصلوات وجبات روحية ، تتغذى بها النفس كما يتغذى الجسد بالطعام المادي .

وهي فريضة دائمة مطلقة ، على عبد وحر ، وغني وفقير وصحيح ومريض ، ومقيم ومسافر . لا تسقط عمن بلغ الحلم في حال من الاحوال . بخلاف الصيام والزكاة والحج .. حتى أمر بها ، في ساحة الحرب وميدان القتال . وهي تشحن نفوس المؤمنين بمقدار من غنى الروح وقوة القلب ، وطاقة النفس ، لا يوازيه شيء من غنى المادة وقوة البدن ، وطاقة التراب . ويروي المؤلف ما حدث لشيخ الاسلام « عزالدين بن عبد السلام » ، مع السلطان الملك الصالح « نجم الدين ايوب » اذ قرعه الشيخ على اهماله شؤون الدين ، والمحافظة على شعائره ، في المجتمع فقيل له بعد ذلك : « يا سيدي أما خفته ؟ فقال الشيخ : « والله يا بني استحضرت هيبة الله ، فصار السلطان قدامي كالقط » .

بل يرى المؤلف في الصلاة سبيلا للبرء مما يسمى اليوم بمركب النقص « اذ يقرن المصلي بينه وبين زملائه المصلين من فضلاء الامة ، وعباد الله الصالحين » . وهكذا يتسلسل البحث عن الصلاة ، فيقارن المؤلف بين صلوات الامم ، قديمها وحديثها ، ليرى ان الصلاة الاسلامية ادعى الى الخشوع . وانها باب الصلاح والاصلاح . وان كان ثمة صلاة وصلاة . فليست الصلاة مع الغفلة والجهل مثل الصلاة مع الاستحضار والثقة . وليست صلاة عامة المسلمين مثل صلاة العارفين واهل اليقين . ولا يجب ان تكون صلاة كل احد ، في اليوم ، مثل صلاته بالامس – وقبل شهور وسنين . »

وحينما يتحدث المؤلف عن الزكاة « يرى انها ليست في الاسلام ضريبة ، كما هي الضرائب المفروضة بالقوانين الزمنية ، ولا هي غرامة يدفعها الموسر ... بل هي عبادة كالصلاة التي يحرص على ادائها المسلم ، ويحافظ عليها بدقة ، ولا يقر له قرار حتى يقوم بها». وهنا يبرز المؤلف الناحية الانسانية في الزكاة ، ويذكر ان الاموال ليست هي حاجة الانسان الوحيدة ، وان المساواة فيها او الشركة لا تسد كل فراغ في نفسه ، وفي مشاعره واحاسيسه ، وفي حياته ، ولا تضمد كل جرح من جروحه . ان حاجته الى مؤاساة شاملة للحياة كلها أشد من حاجته الى المساواة في المال كله ، وفي المرافق كلها ».

ثم يورد حديث الرسول صلى الله عليه وسلم القائل وهو يذكر وجوه البر والمعروف : « تعدل بين الاثنين ، صدقة . وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها ، او ترفع له عليها متاعه ، صدقة . والكلمة الطيبة صدقة . وبكل خطوة تمشيها الى الصلاة صدقة . وتميط الاذى عن الطريق صدقة » ..

واجمل ما اورده المؤلف عن الصيام هو تلك المقارنة بين الصوم ، لدى الامم الوثنية الغابرة ، واتباع الديانات السماوية السابقة للاسلام وبين الصوم الاسلامي . ثم يرى ان دوران هذا الصوم الاسلامي على فصول السنة ، لارتباطه بالتقويم القمري ، هو من ميزات الاسلام . « اذ لا يكلف المسلمون بالصوم في حر لافح ، وفي قيظ شديد ، ولا في برد قارس وشتاء كالح ، دائما وفي كل سنة فيتمتعون بتغير الفصول واختلاف الطقوس ويتعودون كل ذلك ، وهم في ذلك صابرون محتسبون ، او شاكرون حامدون » .

ومثل هذا اورده المؤلف للتدليل على ان الحج في الاسلام انما فرض لاصلاح ما فسد من عادات الناس ، في تلك المناسبة التي شرعها الله على لسان ابراهيم . « فقام الاسلام بدوره الاصلاحي التجديدي في الحج ، كما قام بدور مماثل في الاركان الثلاثة الاخرى . اذ تصدى للبدع الجاهلية ، وللمواقف الجاهليين الدخيلة ، فاجتثها واستأصلها وابدلها بخير منها . وبهذه الاصلاحات البعيدة الاثر ، رد التشريع الاسلامي هذا الركن العظيم الى أصله الابراهيمي ، ووضعه الاصيل النقي ، البعيد عن تأويل الجاهلين ، وتحريف الغالين ، وانتحال المبطلين »

رشاد دارغوث

الاصول العربية للدراسات السودانية

جمع واعداد وتنسيق يوسف اسعد داغر الاختصاصي بعلم المكتبات والببليوغرافيا والتوثيق العلمي - ٢٧٢ صفحة - حجم كبير - مطبعة النجوى ببيروت

كل من يعني بين ادباء العرب اليوم بعلم الببليوغرافيا يعرف جيدا المكانة التي يتمتع بها الاستاذ داغر في هذا المجال . فهو في طليعة المكتبيين العرب اليوم ، بعد الخدمات الجليلة التي اداها للمكتبة العربية بالعديد من الكتب والمؤلفات التي وضعها والتي يعد بعضها بحق من المصادر والاصول التي لا يستغني عنها باحث والتي تعتمد في كثير من الجامعات شرقا وغربا . فالاستاذ داغر من الرعيل الاول الذي تخصص بعلم المكتبات وفن تنظيمها والببليوغرافيا والتوثيق العلمي من معهد المكتبات في السوربون . وقد اخلص الخدمة لمهنته ولعمله يعمل بدأب ونشاط في تزويد الباحثين والعاملين في خدمة الثقافة بالاصول والمراجع الاساسية .

قدمنا بهذه الكلمة بمناسبة صدور كتابه الجديد « الاصول العربية للدراسات السودانية » الذي يؤلف اداة علمية لا مندوحة عنها ولا بد منها لكل من يتصدى للبحث في اي ناحية من نواحي تاريخ السودان والبلاد المجاورة له او تتصل بالسودان مما يؤلف حوض نهر النيل .

فقد ارسلت منظمة اليونسكو الاستاذ داغر ، في السنة الماضية خبير في امور التوثيق العلمي وعهدت اليه العمل مع وزارة التربية والتعليم في السودان على انشاء مركز للتوثيق التربوي يقوم على مد المربين والاساتذة والمخططين للتنمية الاقتصادية في البلاد بما يلزم من المصادر والاصول . فقام بمهمته خير قيام .

وبالرغم من قصر الوقت الذي قضاه في السودان وهو اربعة اشهر لا غير ، فقد وضع في اوقات فراغه كتابين تولى نشر الاول منهما مكتب النشر التابع لوزارة التربية في السودان ، وذلك بعنوان « التوثيق التربوي . مفهومه ، اهدافه ومؤسساته » وهو بحث طريف ، لعله الاول من نوعه في اللغة العربية، يقع في نحو ٧٥ صفحة.

اما الثاني فهو الكتاب الذي نحن بصدده وفي سبيل تقديمه للقارىء العربي فقد جمع هذا الكتاب من الاصول الخاصة بالدراسات السودانية ، زهاء الفي مصدر بين كتب وابحاث وضعها او ترجمها سودانيون او كتبت عن السودان في الخارج او نشرت حول السودان في الحقبة الواقعة بين ١٨٧٤ - ١٩٦٧ . بذلك تضمهذه الببليوغرافيا مئات المقالات والبحوث المنشورة في المجلات العربية الكبرى التي عرف بها تعريفا علميا في مطلع الكتاب ، او في المجلات السودانية التي ظهرت في السودان في السنوات الاخيرة ، مما استطاع الوصول اليه والاحاطة به . ولم يتعرض للابحاث والمقالات التي ظهرت في الجرائد والصحف اليومية او الاسبوعية . فمثل هذا العمل يقتضي له جهودا طائلة وافقا اوسع او يدي عاملة .

وقد وزعت هذه المصادر على الابواب الرئيسية التالية : الببليوغرافيا والادلة والتقاويم - الدين وابحاث دينية - ادارة وحكم وسياسية - الادب ، النقد الادبي واللغة والشعر والدواوين الشعرية، القصة والمسرح - الاجتماع ودراسات اجتماعية - التربية والتعليم - التاريخ والجغرافية والسير والتراجم ، النيل ورحلات واسفار - الاقتصاد ، عمل وعمال - الزراعة - الصحة - الفنون ، فولكلور واداب شعبية - دوريات : جرائد ومجلات. ويعتبر هذا الفصل الاخير اوفى واتم دراسة في تاريخ الصحافة في السودان ظهر للان ، اذ عرف بمائة وخمسين دورية او صحيفة صدرت في السودان حتى عام ١٩٦٧ . وقد ساق المؤلف الكريم بعد كل مادة من هذه المواد المصادر والمراجع التي تعود اليها وفقا لاسماء مؤلفيها او كتابها مرتبة على الهجاء . ولكل مصدر او مرجع رقمه المسلسل .

وقد ختم دراسته هذه بفهارس ومسارد باسماء المؤلفين مرتبة على الهجاء وبعد كل اسم ارقام المصادر التي تعود لكاتب او مؤلف معين .

والكتاب يبرز في حالة قشيبة من الطباعة الانيقة والحرف الناصع والعناء المخدوم . وينتهي بمقدمة باللغة الانكليزية هي بقلم احد المكتبيين المشهورين في امريكا هو السيد موريس ليتش الذي يعمل في مؤسسة فورد ، خبيرا في امور المكتبات .

ولقد قام الاستاذ داغر بوضعه هذا الكتاب بخدمة كبرى للدراسات السودانية وهي خدمة ستقدرها له الحكومة السودانية الكريمة . واننا لنرجو مع الكثيرين ان يتمكن الاستاذ داغر من اخراج المزيد من هذه الحلقات الببليوغرافية العلمية ولا سيما ما تبقى من اجزاء كتابه المشهور « مصادر الدراسة الادبية » الذي صدر منه جزآن ، فيخدم بذلك الدراسات الادبية خدمة جلى يفيد منها العاملون في حقل الاداب العربية ، شرقا وغربا ، كما نتمنى عليه ان يخرج قريبا قاموسه الكبير فرنسي عربي الذي يعمل على وضعه منذ نحو ٣٠ سنة . وقد بلغنا انه انتهى من وضعه .

فؤاد الخوري

•

١ - هنيبعل

تأليف جورج مصروعة - جزآن - ١١٥٠ صفحة - مزين بالرسوم الاثرية - حجم كبير - مطابع سميا بيروت .

استهل المعلم محاضرته - الدرس - وكان موضوعها « فلسفة التاريخ » بقوله : « ان من اعظم ويلات هذا الشعب انه يجهل تاريخه » ثم رفع بيده كتابا ضخما كان يتابطه وقال : « ان مواضيع هذا الكتاب - وهو من انتاج اعظم دماغ عسكري الماني في القرن السابع عشر - تدور كلها حول معركة واحدة من معارك هنيبعل التاريخية وهي معركة « كان » ورسم المحاضر على اللوح الاسود خريطة ارض المعركة وعين مواقع الجيشين القرطاجي والروماني ، وشرح لطلاب مدرسته رموز الكماشة العسكرية التي ابتكرها القائد القرطاجي الساحر « هنيبعل » وطوق بها جيوش الخصم والتف حولها وابادها . واختتم الاستاذ محاضرته بقوله « ان تاريخ هنيبعل وقرطاجة - ربيبة صور - هو لمعة مشعة من اشعاعات حضارتنا التاريخية المشرقة بالامجاد ، ان هنيبعل هو اعظم نابغة حربي في كل العصور وعند كل الامم » .

سمع هذا الكلام عشرات الطلاب ، وتناقلته الوف الالسن ، ودار على اكثر من دولاب مطبعة ... ولكنه لم يفعل - على ما ظهر - الا في طالب واحد ، لا تراه بالعين المجردة اذا لم يخاطبك ، لنحوله الجسدي وقصر قامته ، وقد ظن الكثيرون انه « الطش » بين الطلاب . فانتضى ريشته الساحرة ، وتسلح بالثقة بالنفس وبالارادة والايمان ، وغاص في ركام التاريخ ، وراح ينبش المعالم والقبور وينقب تلافيف الازمان والدهور ، ويفلي رمال الصحاري والخلجان والثغور ، ويغزو المكتبات والمتاحف العالمية في الاكواخ والقصور ، وكان يعمل وحده بجد ونشاط وصمت وهدوء تحت طبقات الثرثرة والصياح ، ولما اكتملت عدته وخرج المولود سليما ، اطل بثمرة جهوده الناضجة على المكتبة العربية بكتاب فريد ضخم بعنوان « هنيبعل » وهذا التلميذ « الطش » صاحب هذه المعجزة هو ابو زيكار جورج مصروعة .

مئات الكتب وضعت عن هنيبعل في مختلف اللغات العالمية ، وترجم منها الكثير الى اللغة العربية ، وظهرت نتف من محتوياتها في الكتب المدرسية عندنا ، وكثيرون من المؤرخين المحليين عالجوا هذا الموضوع .. وبقي هنيبعل بالنسبة لنا اسطورة غامضة واحجية مجهولة، ومحارب قديم ، يعرفه العالم ونجهله نحن ، الى ان طلع جورج مصروعة بكتابه الضخم ((هنيبعل)) بجزئين بالف ومئة وخمسين صفحة من الحجم الكبير مع مجموعة نادرة من الصور ورسوم التماثيل والخرائط والاثارات عددها ٧٢ لوحة وكلها تدلنا على تاريخنا وتعبر عن معالم حضارتنا .. عندها ظهرت شخصية هنيبعل من خلال شخصية قرطاجة العظيمة ـ نصفنا المغترب ـ الموجة الكنعانية الفينيقية التي انطلقت من صور مع أليسار ، فشادت المدن والمدنيات وزرعت النور والمعرفة والحضارات بالحرف والشراع والمحراث والرسالات ، وفلشت على الدنيا بذور العقل والفكر والحكمة والعلوم والفلسفات من على رأس ذلك البرزخ الاخضر حيث تقمصت تونس اليوم بنهضتها القومية المباركة .

من خلال هذا السفر النفيس الفريد في المكتبة العربية توضحت لنا شخصيتنا التاريخية وانتصب عملاقنا الجبار هنيبعل بيننا بحملته العسكرية الضخمة التي قطع بها جبال ((البيرينيه)) وقمم ((الالب)) قبل نابليون بعشرين قرنا ، وقهر روما في عقر دارها ، وبهذا اثبت بالفعل انه ((اعظم نابغة حربي عسكري في كل العصور وعند كل الامم)) .

كتاب تاريخ هنيبعل ، ـ هذا العمل الضخم الذي تعجز عن القيام بمثله المؤسسات والحكومات ـ انجزه ابو زيكار وحده ، وكان لظهوره فرحة كبرى عند ارباب الفكر وعشاق التاريخ الاصيل ، وضجة مدوية في المحافل الادبية وتقدير كبير لدى اركان القيادات وكبار القادة العسكريين المعاصرين .

٢ ـ العبقرية المنسية

تأليف يوسف مروة ـ قدم له سعيد عقل ـ ١٥٠ صفحة ـ منشورات مروة العلمية بيروت

((العبقرية المنسية)) كتاب اصدره العالم اللبناني يوسف مروه ، مع سلسلة كتب ومجموعة ضخمة من المقالات والابحاث العلمية ، غمر بها حقول الصحافة العربية ، وهذا الكتاب هو الثاني بموضوعه الذي يتحدث فيه المؤلف عن العالم المخترع كامل الصباح ، ذلك العبقري العظيم من ابناء لبنان الذي اغتاله الصهاينة لتفوقه على علمائهم وعلماء العالم .. والذي يعرفه العالم ونجهله نحن ! ! اما الكتاب الاول عن الصباح ((عبقري من بلادي)) فقد كتبه يوسف مروه عام ١٩٥٤ وقد كان لا يزال طالبا ثانويا .. اما ريع هذا الكتاب فقد خصصه المؤلف للمساهمة بانشاء ((مختبر كامل الصباح العلمي)) واقامة نصب تذكاري في النبطية بلبنان الجنوبي لتخليد ذكرى كامل الصباح .

يشرح المؤلف بهذا الكتاب ، بعد تلخيص سيرة حياة المخترع اللبناني ، جميع اختراعات الصباح العلمية الكهربائية وهي ٧٥ اختراعا، باسمائها وانواعها وكيفية استعمالها وتواريخ تسجيلها واسماء الشركات التي احتكرت امتيازات استثمارها ، واهم هذه الاختراعات ((الكهرباء من الشمس)) .

يأخذ البعض على العالم يوسف مروة زج قضايا الدين بالعلم والعلم بالدين ! ويجهل هذا البعض ان العلم لم يكن يوما ضد الدين ، ولا كانت الاديان الاصيلة عبر التاريخ ضد العلوم الصحيحة . وان العلم لا لون له ولا جنسية ، ولا هو محصور ببيئة ضيقة ، او بعشيرة وطائفة ، وان العالم غرضه تحقيق رسالة العلم التي تخدم البشر وتحقق انسانية الانسان ، وان كل كشف علمي يظهر حقيقة التقارب والانسجام بين جواهر العلوم وروح الرسالات السماوية انما هو عمل نبيل تباركه الارض وتقدسه السماء لانه يبدد غيوم الجهل واوهام وغباوة الضلال .

ان كشف الغطاء عن عبقرية كامل الصباح المنسية ، يدفعنا لتذكير العالم ، ولتعليم الاغبياء ، ان ارضنا هي مهد الحضارات ، ومنبع الرسالات ، ومناجم العبقريات ، وان في حضنها الدافىء تخمرت العلوم ـ كل العلوم ـ وفي مدارسها الفكرية نضجت وتبلورت، وفي مروجها الخصبة الخضراء تفتحت براعم بذورها واثمرت ، وعلى اجنحة حروفها النورانية واشرعتها وصهوات صوافنها انطلقت ، عبر السهول والجبال والبحور والخلجان ، وتوزعت مع خط الاجنحة والاعلام وروعة البطولة والايمان ، مشاعل هداية ومنائر عقول و ((زوايد)) افكار على جميع ابناء الامم والشعوب في كل زمان ومكان .

كامل الصباح ، عبقرية منسية ، يوسف مروه بالذات عبقرية لا تزال مجهولة ومنسية ، الامير شكيب ارسلان ، امير البيان ، يكاد ان يصبح عبقرية منسية ، وعبقريات اخرى خالدة كثيرة ... اما اليوم فقد انطلق النور من الظلام واشرقت الشمس بعد غياب وظهر فجر الربيع ، وتخمرت روح النهضة العلمية في ضمير كل مجاهد مؤمن وكل جندي مجهول متمرس في خنادق الحق وميادين معركة المصير ... فلا خوف بعد اليوم على اساطيرنا ان تدوب ، ولا على انتاج ادمغة عباقرتنا ان يتبخر ، ولن يبقى بعد الان في مناجم ارضنا كنز دفين ولا ((عبقرية منسية)) .

عجاج المهتار

•

مع طه حسين ((٢))

تأليف سامي الكيالي ـ سلسلة ((اقرأ)) ـ ١٢٨ صفحة ـ دار المعارف بمصر

لم يحظ في أدبنا المعاصر بالبحث والدرس كاتب مثل العقاد وكاتب مثل طه حسين .. والكتابة عنهما والدراسة لهما لم تتوقف يوما . وفي المزيد من الكتابة والدرس آراء جديدة وأسرار غير معروفة وخفايا ومعلومات لم تتوفر من قبل .. لان لكل كاتب رأيه ومعلوماته ، وكل دارس له وجهة نظره وقدراته في التحليل والموازنة والحكم .

والكتابة عن أدبنا وأدبائنا المعاصرين اصبحت ضرورة للجيل الناشىء حتى يعرف كتابه حق المعرفة ويفهم فلسفتهم حق الفهم ،

ويطلع على وجهات نظرهم التي يصدرون عنها اطلاعا كاملا .. ويستطيع - بعد ذلك - ان ينطق بالحكم لهم او عليهم نتيجة تقويم موضوعي ، وتقييم صحيح لقدرة هؤلاء الكتاب المعاصرين .. فلا يصبحون - بعد الممات - عرضة للشطحات العاطفية التي تصل بهم الى عنان السماء او تسفل بهم الى قرار سحيق ! .. وان كان المآخذ في الكتابة عن الاحياء هو « المجاملة » .. فان المجاملة اذا تعدت حدود المعقول تصبح انحيازا وخروجا على النهج الموضوعي والدرس الصحيح .

وبين يدينا كتيب صغير عن الدكتور طه حسين بقلم الاديب السوري المعروف سامي الكيالي ، وهو ثاني كتيب يخرجه الاديب الكيالي عن عميد الادب العربي ، وقد صدر الاول منذ نيف وعشر سنوات . ويتناول الكتيب بعض الجوانب الهامة من حياة عميد الادب ، وتجلو كثيرا من الملامح التي خفيت على البعض او استغلقت عليه .. ولعل الكلمة التي صدر بها الكتاب لها علاقة بهذا الاستخفاء وذلك الاستغلاق . والكلمة تقول « الى خصوم الدكتور طه حسين - اذا بقي له خصوم - اهدي هذه الصفحات » وقد كان الاولى بالاستاذ الكيالي ان يهدي دراسة للانصار والاخصام على السواء ، لانها تهم الجميع .

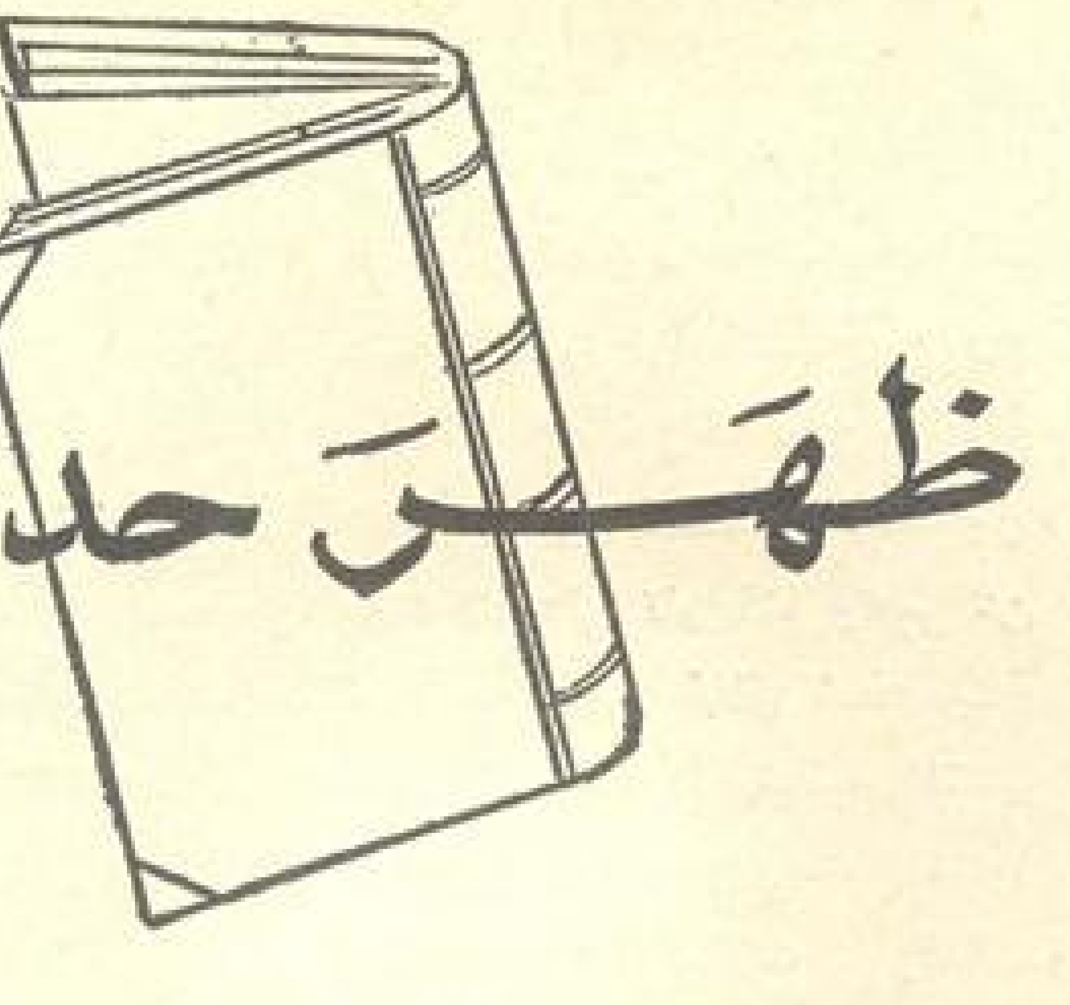
وفي هذه الدراسة التي يسميها المؤلف بالخواطر ، نجد التجوال السريع بين دروب الحياة الحافلة لطه حسين هو الطابع الغالب على الدراسة او الخواطر .. ويتنقل بناء ابتداء من طه حسين الكاتب الحر ، والوزير الحق ، والممثل الجدير بتمثيل بلاده في المؤتمرات والجامعات ، الى طه حسين المسلم الصادق ، والاديب الاصيل ، والصديق الوفي .. ويعرض لنا الكتيب بعضا من آراء الرجل في : الشعر الحر ، والصحافة المصرية ، والازهر الشريف . والجامعة والحياة الجامعية .. ثم ينهي مؤلفنا كلامه عن طه حسين رئيس المجمع اللغوي « مجمع الخالدين » وحامل قلادة النيل أرفع وسام في مصر .

وأهم ما في هذا الكتيب هو اجلاء الموضوع المتعلق بطه حسين المسلم .. فقد ظن الكثيرون - انفعالا بمواقف سياسية معينة منذ الماضي البعيد - ان طه حسين مصاب في دينه ، لانه اخرج كتابا اسماه « الشعر الجاهلي » خالف ما تجاوب عليه الكتاب في عصره وما عرفه الادباء في زمنه ، فيسرد المؤلف ما يؤيد ايمان الرجل وصدق اسلامه وصلاحه ويذكر لنا طرفا عن رحلته الى الحجاز ، ودعائه الذي كان يدعو به ربه ، والذي كان قد حفظه منذ زمن بعيد .. وهو «اللهم لك الحمد انت نور السموات والارض . ولك الحمد انت قيم السموات والارض . ولك الحمد أنت رب الارض ، السموات والارض ومن فيهن .. انت الحق ، ودعوك الحق ، والجنة حق ، والساعة حق . اللهم لك اسلمت ، ولك آمنت ، وعليك توكلت ، واليك أنبت، وبك خاصمت ، واليك حاكمت ، فاغفر لي ما قدمت ، وما أخرت ، وما أعلنت ، وما أسررت . أنت الهي ... لا اله الا أنت ! »

وكان لهذا الدعاء أثره في وفود مؤتمر الحضارة المسيحية الذي حضره الدكتور طه والقاه هناك فقد دوت قاعة المؤتمر بالتصفيق الشديد « وجاءتني سيدة مسيحية ، وطلبت مني نسخة من الدعاء ، فأعطيتها نسخة وقالت وهي تبكي : خذ دموعي واعجابي ، وبلغهما للاسلام الذي أحبه كثيرا ، فقلت لها : لا داعي للدموع .. اعجابك يكفي » (ما بين علامتي التنصيص للدكتور طه حسين) .

وأشار الكاتب الى صداقة الدكتور ووفائه لاصدقائه .. وذكر قصة الصداقة بينه وبين صاحب « الرسالة » الاستاذ الزيات ثم عرج على صداقة العقاد ووفائه له .. ولم أدر هل اطلع الاستاذ الكيالي على مواقف الدكتور الاخيرة من العقاد ام لا ؟ . على أية حال فان هذا الكتيب ذو قيمة ادبية كبيرة في توضيح الصورة التي عرفناها لطه حسين .. وذو فائدة عظيمة في جلاء الشخصية العظيمة ودورها . ومن خلال التوضيح والجلاء تظهر كرامة الادب والادباء .

الاسكندرية **حلمي محمد القاعود**



ظهر حديثا

- مخطوطات البحر الميت - تاليف محمود العابدي - مراجعة امين ابو الشعر وعبد الرحمن بشناق وهنري مطر - ٤٠٤ صفحة - حجم كبير - منشورات دائرة الثقافة والفنون الاردنية - مطابع جمعية عمال المطابع التعاونية في عمان .
- العباسة - مسرحية شعرية من اربعة فصول - تاليف عدنان مردم بك - ١٢٨ صفحة - منشورات عويدات ببيروت - مطابع منشورات عويدات ببيروت .
- مذكرات الحرب - الجزء لاول - النفير ١٩٤٠/١٩٤٢ - تاليف الجنرال ديغول - ترجمة عبداللطيف شرارة - مراجعة احمد عويدات - ٤٨٨ صفحة - حجم كبير - منشورات عويدات ببيروت - مطابع منشورات عويدات ببيروت .
- المذاهب الادبية الكبرى في فرنسا - تاليف فيليب فان تيغيم - ترجمة فريد انطونيوس - ٣٢٨ صفحة - حجم كبير - سلسلة مكتبة الفكر الجامعي - منشورات عويدات ببيروت - مطبعة منشورات عويدات ببيروت .
- القراة - تاليف اندريه مالرو - ترجمة فايز كم نقش - ٢٢٢ صفحة - حجم كبير - منشورات عويدات ببيروت - مطابع منشورات عويدات ببيروت .
- مفاضلة بين الطريقة الصوتية والطريقة الجميلة في تعليم القراءة للمبتدئين - اعداد الدكتور مسارع الراوي - ٣٨ صفحة - ملحق مجلة المعلم الجديد ببغداد - مطبعة وزارة التربية ببغداد .
- نظريات حركة العمل : اسباب نشوء الحركة ، اهدافها ، اساليبها للوصول الى القوة - تاليف الدكتور محمود محمد الحبيب مساعد رئيس جامعة البصرة في العلاقات الثقافية ومدرس اقتصاد العمل في جامعة البصرة - ٤٠ صفحة - ملحق مجلة الثقافة العمالية - (لم يذكر اسم المطبعة) .
- من الاعماق - تاليف اوسكار وايلد - ترجمة عبد اللطيف الدمياطي - ١٦٠ صفحة - نشر وطبع مطبعة ومكتبة الدار المصرية بالقاهرة .
- التفليم المقدس او تعاليم الحاخامين اليهود - اعداد وتقديم ابو صادق - ١١٢ صفحة - منشورات دار البصري ببغداد - مطبعة البصري ببغداد .
- اعمدة النكبة : بحث علمي في اسباب هزيمة ٥ حزيران - تاليف الدكتور صلاح الدين المنجد - ٢٠٠ صفحة - منشورات دار الكتاب الجديد ببيروت - (لم يذكر اسم المطبعة) .
- فضائل الاندلس واهلها لابن حزم وابن سعيد والشقندي - نشرها وقدم لها الدكتور صلاح الدين المنجد - ٨٠ صفحة - حجم كبير - الكتاب الخامس في سلسلة رسائل ونصوص - منشورات دار الكتاب الجديد ببيروت - (لم يذكر اسم المطبعة) .
- حقوق الانسان في نظر الشريعة الاسلامية - تاليف الدكتور عبد السلام الترمانيني - تقديم الدكتور صلاح الدين المنجد - ٤٨ صفحة - منشورات دار الكتاب الجديد ببيروت - (لم يذكر اسم المطبعة) .

جولة الأديب في شهر

مـع الدكتور طـه حسـين

الى « رامتان » ، دارة استاذنا العميد الدكتور طه حسين (١) ، قصدت مع صديقي الاديب العراقي الاستاذ وحيد الدين بهاء الدين ، وجلسنا نتساقى كؤوس العلم مترعة من رجل دائب في طلب العلم ، ينهل ولا يشبع ، ويفيض على دنيا الضاد ولا يتعب ، فهو - كما حدثنا - متواضع الحظ من المعارف قليل القسط من العلوم ، وكلما ازداد غوصا وراء كنوز المعرفة ازداد شوقا الى ما هو انفس منها واثمن .

قلنا للاستاذ العميد : هل ساعفتكم صحتكم بحضور دورة المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية ؟

فاجاب : اعتزمت شهود هذه الدورة فاعجزتني شيخوختي ومرضي . ولكنني تابعت كل ما جرى فيها من اعمال . وقد سرني أن اعرف ان المصطلحات العلمية التي صاغها المجمع قد عول عليها واضعو المعاجم الحديثة في لبنان . فقد قيل لي ان معجم « المورد » (لمنير البعلبكي) ومعجم « المصطلح » (لحسن السمران) وكذلك « معجم المصطلحات الفنية » لجماعة من العلماء ، قد اعتمدت كل ما سنه المجمع من مصطلحات ، وهذا كسب « كبير » للعمل المجمعي .

وسألنا الدكتور طه حسين : أأنت راض عن الفاظ الحضارة التي يفتن في وضعها والتقاطها استاذنا وصديقنا الكبير محمود تيمور ؟

فاجاب : راض عن بعضها ، وغير راض عن البعض الاخر كاختياره لفظة « المرناة » لتكون مقابلا « للتليفزيون » .

وقلنا للدكتور العميد : وماذا ترون في مذهب « المعجم الوسيط » الذي تبنى طائفة من الالفاظ العامية ، واستضاف طائفة غيرها من الالفاظ الاعجمية مثل « البوكس » ، بل لقد استخرج من هذه اللفظة فعلا عربيا هو « باكس يباكس » ؟ وهل قرأتم ما نشره صديقنا الدكتور عدنان الخطيب من ملاحظات سديدة على المعجم الوسيط في مجلة المجمع الدمشقي على امتداد اكثر من اربع سنين ؟

فاجاب الدكتور طه حسين : عن نفسي ، لا ارضى بأي ترخص في الضاد ، وكل لفظة غير عربية النجار ليس لها موضع في القاموس . وقد أمرت بتأليف لجنة من اعضاء المجمع القاهري للنظر في المعجم الوسيط توطئة لتنقيحه في ضوء ملاحظات الدكتور الخطيب وغيره من الباحثين ، حتى تجيء الطبعة الثانية منه ادنى الى الكمال وابعث على الرضا .

وقلنا للدكتور طه حسين : نعرف عنايتكم بالمصطلحات من زمان بعيد ، حتى انكم احتفيتم في اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية بنشر الطبعة الثانية من « معجم الالفاظ الزراعية » للاستاذ الامير مصطفى الشهابي . ولكن هل تعلمون سيادتكم ان هذا المعجم طبع ثم ثوى في مستودع من المستودعات ولا يعرف احد مكانه او مصيره ؟

فقال الدكتور طه : غريب هذا الكلام ، فالذي اعرفه ان المعجم عرض في المكتبات بعد طبعه ، ولا يستبعد ان يهتدي اليه الباحث في بعض هذه المكتبات .

فقلنا : الواقع ان قصة هذا المعجم لغز من الالغاز . فالادارة الثقافية للجامعة العربية لا تعرفه ، ومطبعة مصر التي طبعته لا تعرفه ، والمكتبات لا تعرفه ، وهو مع ذلك ثاو في مخازن عميقة القرار يخشى عليه فيها من التلف والخسران . وكذا نقول ان حال هذا المعجم شبيه بحال « ديوان الشاعر القروي » الذي طبع ثم دفن باكرام !

واستطرد الدكتور طه فقال : من اسف ان زميلنا الاستاذ الامير مصطفى الشهابي رئيس المجمع الدمشقي لم تمكنه صحته من حضور دورة المؤتمر المجمعي ، وأرجو بالحاح ان تنقلوا اليه اطيب امنياتي واصدق موداتي .

كذلك قال انه يكن تقديرا خاصا للاستاذ الدكتور مصطفى جواد عضو المجمع العلمي العراقي ، وان كان هو من غير الاعضاء المراسلين لمجمع القاهرة .

وسألنا الدكتور طه حسين : ما رأيكم في امارة الشعر ، وهل عقدتموها ، ولو مجاملة ، لبعض الشعراء المعاصرين ؟

فقال : انا لا أؤمن بامارة في الشعر ، ولم أدع اليها لا لشوقي ولا لغير شوقي . صحيح انني كتبت عن شوقي دراسة مطولة ، ولكنها كتبت بعد وفاته ولم يقصد بها ان تضفر له اكاليل الامارة . واستدرك الدكتور طه فقال : وقد دارت الايام ، ثم الفيت نفسي صهرا لاسرة شوقي لان نجلي الدكتور مؤنس الذي يعمل الان في هيئة اليونسكو في باريس تزوج حفيدة شوقي .

وسألناه : وما رأيك في شعر المهجر ؟

فاجاب : لي في ايليا ابي ماضي وفوزي المعلوف راي معروف منشور في كتابي « حديث الاربعاء » . وانا اعرف شعر شفيق معلوف واستحسنه . ولكنني مع الاسف لا اعرف الشاعر القروي وجورج صيدح والياس فرحات .

فقلنا له : وهل تقرأون الادب المعاصر ؟ وما رأيكم فيه .

فاجاب : انا لا اقرأ من الادب المعاصر الا ما يرد لي من المؤلفين . وانا راض عن نجيب محفوظ في باب الرواية . ولكنني لا اشتري من الكتب الا ما يتصل بالادب العربي القديم .

وسئل الدكتور طه حسين : وهل تعتقدون ان الادب العربي يجتاز الان مرحلة ازدهار او مرحلة انحطاط .

فاجاب : ان النهضة الحقيقية للادب العربي كانت في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين ، حين لم تكن هناك اذاعة وتليفزيون وسينما وصحف مصورة تصرف الناس عن البحث الجاد وعن القراءة الجادة . ومن اسف ان هذه الوسائل المفيدة لم تكن من اسباب نشر الثقافة بل تحولت الى التسلية وجرفت معها الناس . وفي رأيي ان الكتاب هو المصدر الوحيد للثقافة ، ولا مصدر لها سواه .

وسئل الدكتور طه : هل ثمة فلسفة معينة تركت آثارها في اتجاه التفكير المعاصر . لقد كنت انت من المبشرين بفلسفة الشك التي نحا نحوها الفيلسوف الفرنسي دي كارت فهل ترك الفلاسفة الاخرون تأثيرا مماثلا في غيرك من الكتاب .

فقال الدكتور طه : لقد ترجم صديقنا الدكتورعبدالرحمن بدوي كثيرا من الفلسفات المعاصرة ولا سيما الوجودية ، ولكنني اعتقد انه ليس للوجودية ولا للفلسفات المادية أثر في الفكر العربي المعاصر . وقد يكون للفلسفات المادية تأثير في مناحي الحياة التطبيقية .

وتذكر الدكتور طه حسين أزمة كتابه « في الشعر الجاهلي » فقال : لقد قامت علي قيامة الجميع يوم صدر هذا الكتاب : السراي والازهر والحكومة والبرلمان ، واهتز من تحتي مقعد الاستاذية في الجامعة ، فسافرت الى فرنسا لانسى همي ، وكتبت ، او على الاصح ، أمليت كتاب « الايام » جزءا تلو جزء لاعيش في طفولتي

---

(١) لنا حديث سابق مع الدكتور طه حسين نشر في «الاديب» - فبراير ١٩٥٣ - ص ٦٩ - ٧٠ .

البريئة وقريتي الوادعة وانسى متاعبي.

اما كتاب « الشعر الجاهلي » فلم تكن عندي نسخة منه ، ولما درى بذلك صديقي المرحوم الاستاذ علي عبد الرزاق اهداني نسخته الخاصة منه .

واما كتاب « الايام » فقد ظهرت له في بيروت حلقة ثالثة عنوانها « ذكريات طه‌حسين » جمعها ناشروها من مقالات لي في مجلة « آخر ساعة » ووضعوا لفصولها عنوانات مستقلة . ولكنني سانسبها الى « الايام » باعتبارها جزءا ثالثا ، واتخلص من تلك العنوانات الفرعية ليكون الكلام مستطردا متسلسلا .

وقلنا للدكتور طه حسين : لقد اصدرت مجلة « العرفان » في صيدا عددا خاصا يشتمل على دراسة للاستاذ معلي الصارم عن كتابك « مع المتنبي » ، فهل اطلعتم على هذه الدراسة .

فقال : لم أطلع عليها . وهناك كثيرون يخالفونني الرأي في المتنبي . وانا لا استطيب اكثر شعر المتنبي الذي قاله في المدح . ويعجبني ثلث شعره لا اكثر .

وقلنا للدكتور طه : اماضون انتم في اتمام دراستكم عن الفتنة الكبرى ؟

فقال : أحاول ان اتمها ، وعسى ان تترفق بي صحتي .

وقلنا للدكتور طه حسين ان الصديقين العزيزين السيدة وداد سكاكيني وقرينها الدكتور زكي المحاسني يبلغانه تحياتهما واسمى شعائر موداتهما ، وان السيدة وداد قد فرغت من وضع كتاب كبير عن الاديبة « مي » بينما الدكتور المحاسني يتاهب لالقاء سلسلة من المحاضرات في معهد الدراسات والبحوث التابع للجامعة العربية عن المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام على نسق محاضراته عن الدكتور احمد امين رحمه الله .

فقال الدكتور طه حسين : هذه تحية كريمة من صديقين عزيزين . واستطرد فقال : ولكن هل تستحق « مي » كتابا كبيرا ؟ لقد زرتها لاول مرة في صحبة الاستاذ احمد لطفي السيد ، فطلب منها الاستاذ لطفي ان تقرأ فصلا من مجلة « الهلال » . فتلت الفصل امامنا وحسبتها تتغزل في الاستاذ لطفي السيد .

اما المرحوم عبد الوهاب عزام ، فكيف لا يهتم بدرسه تلميذه الدكتور يحيى الخشاب ؟

فقلنا للدكتور طه : ان دراسة المحاسني له لا تحول دون ان يدرسه الخشاب وغيره من الدارسين .

وقبل ان تختتم زيارتنا للدكتور طه حسين احببنا ان نوجه اليه بعض الاسئلة الخاصة ، فقلنا له ، لم أطلقت على دارتك اسم « رامتان » .

فقال : هذا اسم موضوع في جزيرة العرب ، وهو يذكرني بشميم عرار نجد . وفي فلسطين موضع يقال له « رام الله » ، وقد زرته واستطبت الاقامة فيه .

وقلنا له : وفي الانجيل اشارة الى مدينة فلسطينية يقال لها « الرامة » .

ثم سألناه : ما أحب مؤلفاتك اليك ، وهل انت عنها راض .

فاجاب : لست راضيا عن كل كتبي . ومتى امليت الكتاب ثم روجعت تجاربه في المطبعة ، لا أعود انظر فيه . فلا الكتاب يعرفني ولا أنا أعرفه .

وسألناه : وهل تعتقد انك اديت رسالتك كاملة .

فقال الدكتور طه حسين في تواضع جميل : كلا ، فانا مهما يطل عمري ، لا أملك ان اكمل رسالة . وانا غير راض عن نفسي وعن عملي . ولعل الرسل هم وحدهم الذين اتموا ما نيط بهم من رسائل ، رما نحن برسل .

وودعنا استاذنا العميد وهو يعتذر بوهنه وضعفه ، ودعونا له من أعماق السرائر والضمائر بأن يحفظه الله ويمد في عمره ويلبسه طيلسان الصحة الفياضة .

القاهرة — **وديع فلسطين**

•

جولة في الاندلس

ما هي الاندلس (١) .. ؟ سؤال يوحي بانها غصن بان يتضوع اريجه عطرا بالانتصارات العربية وتداعبه الانسام التاريخية ، فيرقص طربا على أنغام الموشحات الاندلسية .

يا غزال الكرخ واوجدى عليك   كاد سري فيك ان ينهتكا
هذه الصهباء والخمر لديك   وهوايا في هواك احتبكا

فالاندلس اسم مليء بالعبر التاريخية طافح بالذكريات المجيدة ، فاذا ما زرت المدن الاندلسية سمعت كلمة (اسلاميك) و (العرب) تتردد على ألسنة السياح مع الاعجاب والاكبار .. فالكل قطع المسافات البعيدة وتجشم وعثاء السفر وعناءه يدفعه الشوق وتحدو به الرغبة للاطلاع على ما خلفه العرب في الاندلس من فن معماري وتراث حضاري خليقين بالدرس والتتبع والرعاية والعناية .

– لم لا تسافر الى الاندلس .. ؟

سؤال طرحه علي صديقي وكنا نتجول في جنيف نقتل الوقت حيث الوقت يذيب ساعتنا ويسرق لحظاتنا ، من حيث ندري ... ! ولا ندري ... !

– كيف اسافر ... ؟ حيث لا رفيق سفر لي أدير معه الحديث وابدد غيوم الغربة ..

– لا عليك .. فهناك سفرة تقوم بها شركة للطيران ، وهي تنظم سفرتك بصحبة من السياح « التورست » ستالفهم ويالفونك ، وتندمج مع من تنسجم معه فتتابع الايام وطول الطريق ، يولد الرغبة لدى المسافرين بالتعارف ونشر التعاون والالفة .

وفي مساء غد رأيتني أحمل حقيبتي واجتاز مطار جنيف مع صحبة طيبة ممن راقتهم السفرة من مختلف الجنسيات والاجناس فذا (هندي) وآخر (امريكي) وثالث (افرنسي) وانا ذاك (العربي) حيث جاء وكله شوق ليطلع على ضياع المجد في فردوسي المفقود ... بعد ان اضاء ثمانية قرون بكل عز وتحد ... !

ووصلنا (مدريد) (٢) ... وبعد ان اخذنا قسطا من الراحة ، دعينا لزيارة المتحف ، وقد سرني ذلك كثيرا ، فانا رغم جهلي الفاضح في فن الرسم ، وعلى تواضع الدرجات المدرسية التي كان يهبها لي مدرسنا حيث اعتاد ان يعقب على رسومي « بانها لا تتميز .. فيما اذا كنت ارسم سمكة او عين انسان ... ! » اذ كلاهما – والحق يقال – في رسومي سيان .. كما كان زميله مدرس (الجغرافيا) يعقب على (خرائطي المدرسية) فيقول :

– – لا شك انك يا ناجي ضغطت على برتقالة فشكل عصيرها هذه الخريطة ... ! فيضج الصف بالضحك ، بينما أذوب خجلا وحزنا .. فالعجيب اني رغم جهلي بهذا المحراب المقدس .. واظن هذا التقديس يعوض في اعماقي عن عجزي في هذا المضمار .

وما هي الابضع دقائق حتى وقف بنا (الاوتوبيس) عند باب المتحف الكبير ، فدهشنا لسعته وفخامته ، وكنا كلما تجولنا في

صالاته ورحابه المتعددة الرائعة تضاعف عندنا الاعجاب وازداد شوقنا للاطلاع ، ولما رأيتني اعجز من ان استطيع ان اطلع على كل قاعاته وجل صالاته ، رحت أسأل (المرشد) ليهديني على قاعة الفنان العظيم (كويا) ... حيث اكن لشخصه الطيب كل تقدير ولفنه الرفيع كل اعجاب ، وكان حبي له صدى لتجاوبه مع شعبه ودفاعه عن حقوقه المغتصبة بيد مستغلي حريته وقوته ... فقد استطاع كويا بفنه الرائع وصوره المعبرة ان يجسد آماله ويشرح ظلامته ، فاذا ما وقفت امام صوره المتعددة التي يعتز بها كل اسباني واي فرد انساني .. وجدت نفسك امام عبقرية تستطيع ا نتجذبك جذبا وتشدك اليها شدا وثيقا فسرعان ما تندمج بها .. وذلك لدقة التعبير ورهافة الحس وجمال التصوير حيث وهبها الباري القدير لهذا الفنان في مزج الاوان وخفة الحركات التعبيرية بريشته العبقرية .. ومما ضاعف رغبتي في الاطلاع على جل اعماله الفنية ، هو ذلك (الفلم) السينمائي بالوانه الطبيعية الذي صور قصة حياته حيث عبر البطل بمقدرته التمثيلية عن جهاد (كويا) وجهوده الفنية والوطنية اصدق تعبير .

فالمعروف عن هذا الفنان الخالد انه قاسى ضروبا من الحرمان ، اذ لم تتوفر له الفرص المسعفة لسد رغباته وحاجاته لدرجة انه لم ينعم كغيره بنعمة التعليم ونعيمه ! ولم يتدرج في الدراسة العالية بينما كانت روحه العالية وقلبه الكبير وشعوره الانساني .. هو الطابع المميز لجميع اعماله الفنية .

وفي احدى القاعات وقف المرشد أمام صورة زيتية كبيرة وأخذ يشرح لنا قصتها فقال :

ـ انها تمثل افراد العائلة الحاكمة آنذاك ... ثم اشار بيده نحو الصورة .. قائلا لاحظوا مقدرة كويا التعبيرية ، حيث استطاع ان يرسم الاثاث الفخم ويظهر الثراء الفاحش والابهة والملابس المزخرفة بالذهب والمطعمة بالاحجار الكريمة والاوسمة الماسية البراقة .. ولكنكم تستطيعون ان تمعنوا النظر في وقفتهم المتعالية التي تدل على الغرور والكبرياء والخيلاء .. فلو صعدتم أنظاركم الى وجوههم الباهتة ونظراتهم الفاترة الباردة التي اودعها كويا بريشته القديرة كل ما يوحي بالبلادة والبلاهة .

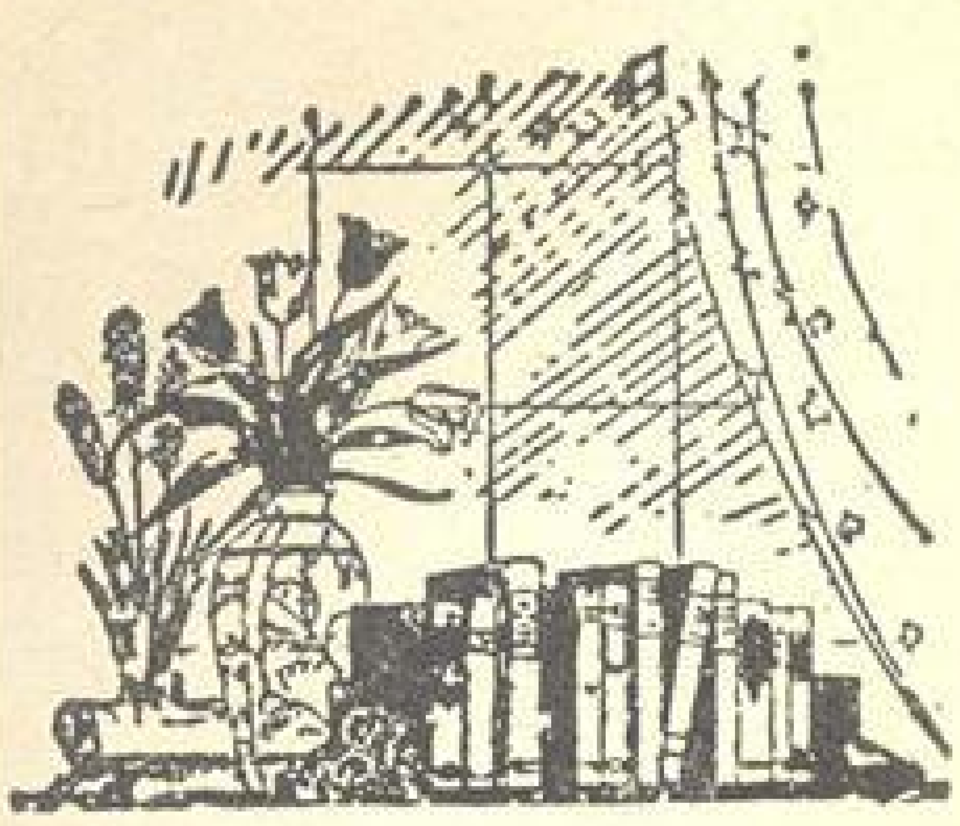
ولقد ولد هذا الفنان الوطني عام ١٧٤١ م وتوفي عام ١٨٢٨ م وبين البداية والنهاية .. كان تاريخ حافل بالروائع الفنية والصور التاريخية ، والجهد الجهيد والكفاح الموصول العنيد ، حيث بلغ الذروة بالمقدرة الفنية وطبقت شهرته الافاق وتغلغل حبه في الاعماق .

ولما طال في مدريد مقامي علمت انها مبنية على هضبة مرتفعة ، ولم يبق من ابوابها القديمة الا ثلاثة ابواب منها (باب) القلعة ورحت أزور اكثر معالمها (كقصر وزارة الداخلية) و (دار الاكاديمية) و (القصر الملكي) السابق و (بنك اسبانيا) الكبير و (مجلس النواب) ثم دار الاديب الاسباني الشهير (سرفانتس) (٣) حيث سكنها منذ عام ١٦٠٦م الى وفاته عام ١٦١٦م وقد حافظوا عليها كتراث خالد فاضحى يزورها المعجبون بادبه وقصته الشهيرة (دون كيشوت) بشخصيتها الخيالية الطريفة التي غزت اطراف العالم فخلدت اسمه وجعلته في مقدمة الادباء العالميين.

وقصته دون كيشوت تحدثنا عن فارس شيخ فقير مختل الشعور عزم على احياء فروسية القرون الوسطى فركب حصانه الهزيل وحمل سيفه الصقيل ورمحه الطويل وخرج الى البراري للدفاع عن المظلومين والضعفاء والمحرومين ، وبالنظر لاختلال شعوره تصور الطواحين شياطين ، والاكواخ قصورا ، والجواري سيدات آمرات مطاعات .

لكنه رغم جميع المتاعب التي أحاطت به والمخاطر التي رمى نفسه وسطها لم يأل جهدا في الدفاع عن الحق ضد القوى القاهرة

الاديب



لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية

للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل.ل.

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي

٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي

في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات بالبريد العادي

٢٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد ادنى

في الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنى

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

تليفون : الادارة ٢٢٣٨١٩ — المنزل ٢٢٥١٣٩

Tel : Dir : 223819 — Dle : 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت ـ لبنان

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول

البير اديب

ونصرة المستضعفين في الارض .

فان شخصية دون كيشوت قد اصبحت رمزا للرجل الـــذي لا يقدر الواقع حق قدره ويمضي في سبيله دون ان يحسب حسابا للعواقب والمصاعب والمتاعب .

ودون كيشوت شخصية تجمع الهزل بالمأساة ، وقصة تضحك من يقرأها قراءة سطحية ، وتبكي من ينفذ الـى اعماقهـــا ويتبصر بمغزاها البعيد ..

ويروى ان احد ملوك اسبانيا كان مارا بالطريـق فرأى رجلا يقرأ كتابا ويضحك فقال : ان هذا الرجل اما انه يقرأ كتاب دون كيشوت او انه مجنــون ... ! والى جانب شخصية دون كيشوت تبرز شخصية غلامه (سانشو بانزا) الفلاح الامي الذي لا يخلو مـن الحكمة ، فهـو يحسب لكل امرحسابه ، ويتمسك بالتبصر والحذار ، فاذا كان دون كيشوت يمثل الخيال المثالي فان سانشو يمثل التعقل والواقعية .

واذا ما تجولت في مدريد وتطلعت الى المحلات التجاريـــة ومعارضها التحفية والفنية اذن لما وجدت معرضا يخلو من مجموعـة طريفة لتماثيل الفارس دون كيشوت خشبية كانت ام برونزية ، اذكثيرا ما يبتاعها السياح تذكارا لزيارتهم لاسبانيا او رمـزا لهـذه الشخصية الخيالية التي تجشمت جل المتاعب وعانت أقسى المصاعب للدفاع عـن الحق ... ونصرة المستضعفين في الارض *

---

(١) الاندلس : كلمة اشتقها العرب من اسم القبائل (الفندال) الجرمانية التي احتلت جزيرة (آيبريا) كلها وحكمتها حتى احتلهـا (القوط) ثم فتحها موسى بن نصير بجيش مؤلف من العرب والبربر .
(٢) مدريد : ذكرها العرب لاول مرة باسم (مجريط) في النصف الاول من القرن العاشر الميلادي ثم استولى عليها الملـــك الفونسو السادس عام ١٠٨٣ م ، ولم تصبح عاصمة اسبانيا الا في عهد الملك فيليب الثاني عام ١٥٦٠ م . (٣) ميغويل دي سرفانتس : ولد في مدينـة الكالادي هنارس القلعة عام ١٥٤٧ م وتوفي في مدريد في ٢٣ نيسان ١٦١٦ اي في نفس اليوم الذي توفي فيه وليم شكسبير في انكلترا ، دخـل سرفانتس سلك الجيش في شبابه ، وحارب وجرح ثم اسره القراصنة واخذوه الى الجزائر اسيرا ولم يتم فداؤه الا بعد خمس سنوات ، مال بعد ذلك الى الادب فكتب اشعارا وقصصا ومسرحيات ونشر القسم الاول من روايته الشهيرة « دون كيشوت » او « دون كيخوتي » عـام ١٦٠٥ م ولم تلبث حتى ترجمت الى الانكليزية والفرنسية والعربيـة وسائر اللغات الحيـة .

بغداد — ناجي جواد

•

تطــور البلاغــة العربيــة

اطروحة الدكتوراه في جامعة الازهر للدكتور علي العماري

أحرز الدكتور علي حسن العماري اجازة الدكتوراه من جامعة الازهـر باطروحة ضخمة عـن البلاغة العربية . وقد تعودت « الاديب » فـي بابها هذا ان تسجل نبذة عن هذه الرسائل تقديرا منها واذاعة لهـذه الاعمال الادبية في العالم العربي كله .

كانت لجنة المناقشة مكونة من الدكاترة عبد العظيم الروبي وعبد الحسيب طه وعبد الحميد يونس وقد منح الدكتور العماري الدرجة بمرتبة الشرف الاولى بعد مناقشة طويلة وعرض شامل للعمل الـذي وهبه سنوات حياته. والدكتور العماري رجل سمح مليء بالحياء والتواضع، لا يعلن على نفسه ، ولا يحاول أن يحيط نفسه بهالة من المظاهر ، في نفس الوقت الذي يتعمق عمله ويحيطه بكثير من الدقة والاستقصاء . فقد كان « العماري » احد كتاب « الرسالة » منذ مرحلتها الاولى ، وهو لا يغير ميدانه ولا يتحول عن فنه الذي احبه وشغل به ، ومؤلفاته السابقة لرسالته تتصل كلها بالبلاغة العربية وهو يتابع الجاحظ في عمله هذا الكبير ويعتبر دراسته امتدادا له مارا بالرازي والسكاكي وغيرهمـا .

يقول في عرض اطروحته :

لقد اهتدى الامام عبدالقاهر الى فكرة سمعت من يقول انها في نظر الغربيين الفلسفي الدقيق ، اهتدى الى ان الانسان يفكر بلفظ ، وهذا ما يؤكده كثير من النقاد الغربيين اذ يقولون : ان الفكر ذاته كلمـة وان المعنى حين يجول في النفس يكون معه لفظه .

وعلماء العرب يفصلون بين اللفظ والمعنى حين ينتقدون أثـرا ادبيا ، وكذلك يفصل بعض النقاد الغربيين ، غير ان اغلبهم يرفـض هذا الفصل ، مؤمنين بان الاثر الجيد هو ما جمع بين جودة المعنـى وحسن اللفظ . وفي مجال بحث هذه القضية تدور الفاظ باعيانها تتوقف على النظر فيها كثير من الاحكام التي يصدرها الباحثون وبعض هذه الالفاظ احتفظ بمعناه اللغوي الى حد ما ، ولكن اكثرها تجاوز معناه الاول ويؤخذ من كلام البلاغيين ان المعاني درجات : فالاول هـو المعنى الحقيقي للفظ ، والثاني هو لازم المعنى الاول او ملزومه ، امـا المعنى الثالث فيكون مع التعريض .

وقد عرف « عبد القاهر » الاسلوب بانه للضرب من النظـم والطريقة فيه ، ولعل اوسع ما كتب عن الاسلوب عند المتقدمين هـو ما كتبه « ابن خلدون » في المقدمة ، وعنده ان الاسلوب « هو المنوال الذي تنسج فيه التراكيب » .

ومن هذه الالفاظ : القالب ، والنظم ، ومنها الطبع والصنعة ، وهاتان الكلمتان تترددان في كل قضايا الادب والبلاغة والادب المطبـوع ما صدر عن فطرة سليمة والمصنوع ما جاء عن فكر ومعالجة ، والفصل بينهما هـو (الذوق) .

وقد كانت قضية اعجاز القرآن الكريم اقوى دافع الى البحـث في وجوه البلاغة واهم باعث على تدوينها ، وقد ايقن العرب ان القرآن فوق البشر ، ومضت الامة على ذلك الى ان نجمت ناجمة تكره العرب ولغتهم ، قالت ان فصاحة القرآن غير معجزة ، وان الناس يقدرون على مثلها ، فكان ذلك من اقوى الدوافع الى البحث في بلاغة القرآن وقد اتجه هذا البحث مباشرة الى البحث عن لفظ القرآن ومعناه . وكان أن نهض كثير من العلماء للدفاع عن القرآن فوضعوا كتبا فـي غريب القرآن وتاويل مشكل القرآن وقد خلصـوا الى القـول بانه ليس في القرآن حرف واحد يوصف بهذا العيب من عيوب اللفظ .

اما الاراء البلاغية التي اعانت على تدوين هذه القضية فقد كانت أقرب الى القواعد مما رأيناه في مجال النقد الادبي وفي مجال القول في اعجاز القرآن وقد بلغ الكتاب في هذا قولهم « البلاغة الايجاز » ، والايجاز تعليل اللفظ مع الوفـاء بالمعنى وقد تناقلت كتب الادب والنقد صحيفتين ويبدو ان الجاحظ اول من رواهما . الاولى الصحيفــة الهندية والاخرى صحيفة بشر بن المعتمر * ويقـول « بشر » : ان البلاغة في ان يكون اللفظ رشيقا عذبا وفخما سهلا ، وان يكون معناه ظاهرا مكشوفا وقريبا معروفا .

وارجح ان الجاحظ هو اول من قضى قضاء واضحا بين اللفـظ والمعنى ، وقد عاش الجاحظ في بيئة كثر فيها الطاعنون من الزنادقة والشعوبيين وفيها اشتدت الخصومة بين الرواة والشعراء في استحسان الشعر واستهجانه ، وفي هذه الاجواء كتب الجاحظ في البيان وقـد عارض حكمه في هذه القضية واضحا حاسما فمنده ان المعاني مطروحة

في الطريق وانما الشان في اقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وفي صحة الطبع وجودة السبك وقد جعل الجاحظ غاية البيان (الايضاح) موافقة لهذا الرأي .

وقد صحعندي ان الجاحظ يريد بالبديع الاستعارةبقسميهاوالمجاز المرسل والتشبيه . وقد عرض الجاحظ لفنون البلاغة : الايجاز والاطناب ، والاستعارة والتشبيه ، والمجاز المرسل والكناية ، والسجع والازدواج ، والتنافر والاحتراس الذي اسماه (اصابة المقدار) . وقد كشف لنا حديث الجاحظ عن حقيقة لا سبيل الى تجاوزها دون اقرارها وهي « اصالة البلاغة العربية » حيث يذهب البعض الى ان البلاغة العربية راجعة الى البلاغة اليونانية وهذا الذي قدمناه يرد على هذا الزعم : فاذا اضفنا الى ذلك ان سيبويه والفراء وهما قبل الجاحظ قد عرضا لفنون من البلاغة بل اذا اضفنا بعض المصطلحات البلاغية التي رويت عند بعض الجاهليين تأكد لنا ان العرب لم يأخذوا بيانهم من احد .

والدكتور طه يرى ان احدا من العربلم يفهم كتابالشعر لارسطووان الجاحظ لم يعرف كتاب الخطابة له ، فكيف اخذ العرب بلاغتهم عن (يونان) .

ومن تلاميذ الجاحظ ابن قتيبة وقد تدبر الشعر فوجده اربعة اضرب : (١) ما حسن لفظه وجاد معناه (٢) وما حسن لفظه وحلا فان انت فتشته لم تجد فيه طائلا (٣) ضرب جاد معناه وقصرت الالفاظ عنه (٤) وضرب تأخر لفظه وتاخر معناه . وهذا الرأي يكشف لنا ان ابن قتيبة من انصار اللفظ . وكان موقفه من قضية القديم والجديد ، اعجاب بالقديم وانصاف للحديث .

ومن الذين اسهموا في قضية « القديم والجديد » ابو العباس المبرد والقديم عنده فيه الحلاوة والطلاوة ، وقوة اللفظ وفخامته ، وامتلاؤه ، اما المعاني فلا تقصير فيها ولا اثر للمجهود الذهني ، وقد كان المبرد يميل الى الشعر السهل المطبوع ، وكان يفضل البحتري على ابي تمام وعند المبرد ان اول ما يحتاج اليه القول ان ينظم على نسق وان يوضع على رسم المشاكلة وهو لا يعنيه من المعنى الا ان يكون صحيحا .

وكان مدرسة البديع تطورا لمدرسة الجاحظ واشهر رجالها ثلاثة : عبدالله بن المعتز ، وقدامة بن جعفر ، وابو هلال العسكري . وقد كان ابن المعتز اول اساتذة هذه المدرسة تأثرا بادباء القرن السادس وعلمائه . وكان البديع بفنونه المختلفة اوضح مظهر القضية والمعنى كما كان اساسا للخصومة بين القديم والجديد في ذلك الوقت .

واذا كان الجاحظ رأى ان القضية قضية لفظ ومعنى ، وان قتيبة تدبر الشعر فوجده اربعة اضرب فان قدامة بعد ان اطال رأى ان اجناس الكلام ثمانية وبذلك دخل الى تمييز جيد الشعر من رديئه ، ولكنه لم يحكم حكما واضحا حاسما ، وقد جعل الشعر صناعة (المعنى) موضوع هذه الصناعة وشبهه بالخشب والفضة ونرجح ان قدامة لا يرى المهارة في الشعر في مادته وهي المعنى ، وانما يراها في صورته وهي تأليف الالفاظ . وقد أصل قدامة اصولا كانت مرجعا لكثير ممن كتبوا في النقد بعده ، وضع عددا من الاصطلاحات وحدد بعض الظواهر وذكر بعض التقاسيم ، اما في البديع فقد زاد على ما جاء به (ابن المعتز) ثلاثة عشر نوعا ووافقه على سبعة انواع .

ثم خطا ابو هلال العسكري في كتابه « الصناعتين » خطوة أوسع في مجال (البديع) وقد ربط بين البلاغة وقضية الاعجاز وهو ابرز من كتبوا في اللفظ والمعنى بعد الجاحظ فربط هذه الثلاثة في رباط واحد : البلاغة ـ قضية الاعجاز قضية اللفظ والمعنى ، وهو الواسطة بين الجاحظ والجرجاني ثم جاء الامام عبد القاهر الجرجاني وكان له رأي ظاهر في قضية اللفظ والمعنى فهو لم يقف عندها بل تعداها الى ملاحظة (الصورة) وقد حاول المحدثون ان يجعلوا الجرجاني شيخ مدرسة المعنى واقلهم جعله الى مدرسة اللفظ اميل .

وقد وصلنا الى الرأي ان اللفظ اذا افرد بالنعت كان المراد وصف الكلام بحسن الدلالة ، فاذا قيل (كلمة فصيحة) فانما يراد خس ملاءمة معناها لمعاني جاراتها •

وفرق الجرجاني (عبد القاهر) بين نوعين من المعاني : المعاني النادرةاو الحكمية التي اشتملت على تشبيهات رائعة ، والمعاني المنقولة المتداولة فالاولى حسنها ذاتي ، والثاني حسنها حسن التصرف في ادائها ، ويرى ان كل كلام وصف بالفصاحة انما يرجع ذلك الى « المعاني دون الالفاظ » .

وصح عندي ان كتاب « اسرار البلاغة » سبق في التاليف كتابة « دلائل الاعجاز » وان الاول الف في علم البديع والثاني في علم البيان . كما صح عندي ان عبد القادر القاهر كان كفيره ممن سبقوه يجعل الاستعارة فنا من فنون البديع ، وليس يجرؤ احد ان ينكر فضل عبد القادر على البلاغة العربية ولكن اتباع الحق هو ـ دائما ـ الميزة الاولى للباحث النزيه الذي يقدر قيمة رأيه ، فمن الغريب ان يجعل الدكتور طه حسين (المجاز العقلي) من ابتكارات عبد القاهر فالحقيقة ان اول من اشار الى هذا المجاز (سيبويه) ثم تبعه (المبرد) ثم جاء عبد القاهر فاعاد امثلتهما ، وزاد عليها وسمى هذا اللون (المجاز الحكمي) .

ثم كانت البلاغة « التقريرية » نتيجة مباشرة لقضية اللفظ والمعنى ، فقد وجدنا بذورها عند ابو الهلال العسكري وعبد القاهر . اما العالم الثالث الذي أشاع روح الطريقة التقريرية فهو ابن سنان الخفاجي .

اما اول كتاب نقل البلاغة نقلة واسعة من رياض الادب الى ساحة المنطق فهو كتاب « نهاية الايجاز في دراية الاعجاز » لفخرالدين الرازي الذي كان اول من اشاع الطريقة التقريرية في دراسة العلوم كما يقول ابنخلدون ولعل الرازي هو اول من ادخل في البلاغة مبحث (لدلالات) .

ومن الحق ان نقول ان البلاغة التقريرية او البلاغة في صورتها الاخيرة كانت نتيجة مباشرة لقضية اللفظ والمعنى وقد تمت ملامح البلاغة التقريرية على يد (ابي يعقوب السكاكي) في كتابه « مفتاح العلوم » وقد ظهر فضلالسكاكي في ابواب من علم المعاني ، اما علم البيان فاضافاته قليلة ، اما البديع فقد قصر فيه عمن سبقوه . وقد وقع في خطاين اولهما الاكثار من الامثلة المصنوعة التي لا تفيد ، والثاني التزامه النظر العقلي في تقسيماته وتفريعاته ، والحق ان السكاكي وان قيد مسائل العلم من التفلت قد وقف حجر عنده دون استرار النظر في قضية اللفظ والمعنى . فلو ان احاسيس الاديب كان لها سلطان في ذلك التاريخ لكان للبلاغة العربية شان آخر ، ولا تسمع القول في قضية اللفظ والمعنى . ولكن صنيع الرازي والسكاكي من بعده ، وغلبة الروح المنطقية على الروح الادبية ، ثم شغف من جاءوا وابعد هذين بطريقتهما في البلاغة صد تيارا متدفقا ، فجر الجاحظ ينبوعه ورفده (العسكري) برافد ثر غزير ثم جاء (عبد القاهر) فوصل به ينابيع كثيرة ولكنها جميعا وقفت عند عتبة القرن السادس الهجري لانها وجدت سدا منيعا ، حال بينها وبين التدفق والانطلاق .

وبعد فان من اقرب الكلام الى الصواب ما قاله العماد الاصفهاني « اني رأيت انه لا يكتب الانسان كتابا في يومه الا قال في غده : لو غير هذا لكان احسن ، ولو زيد كذا لكان يستحسن ، ولو قدم هذا لكان افضل ، ولو ترك هذا لكان اجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهذا دليل على استيلاء النقص على جملة البشر » .

القاهرة — انور الجندي